اسم الوكيل

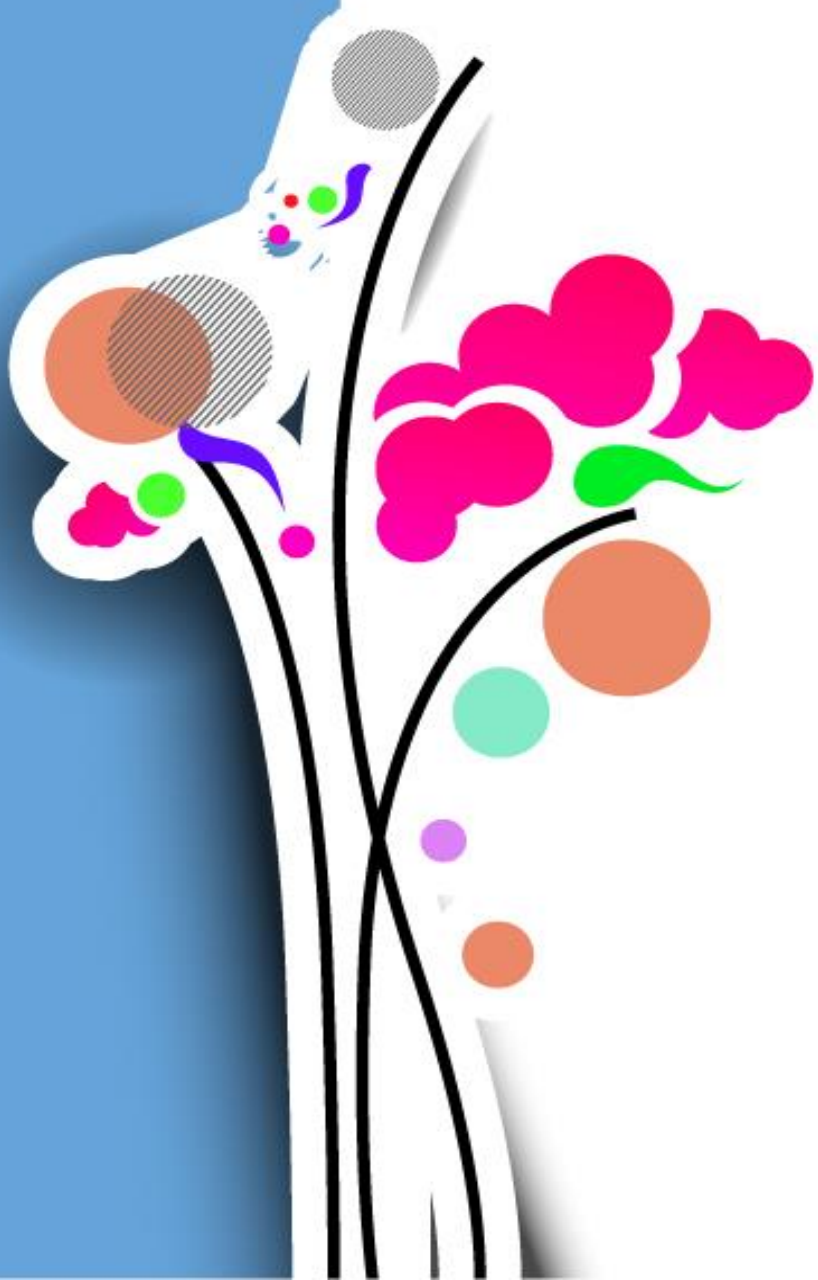

أ. أناهيد السميري

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتي الفاضلات، إليكم سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) http://tafaregdroos.blogspot.com/#!/

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.

- هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليه الأستاذة حفظها الله، أما الدروس المعتمدة من الأستاذة فهي موجودة في شبكة مسلمات قسم (شذرات من دروس الأستاذة أناهيد) http://www.muslimat.net/

- الكمال لله عز وجل، فكتابه هو الكتاب الوحيد الكامل السالم من الخطأ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله. .

والله الموفق لما يحب ويرضى.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبهِ أجمعين.

كما تعلمون أن أسماء الله –عز وجل– كلها لها علاقة ببعضها، وكلها تملأ في نَفسِ الإنسان ثغرات متَّصلة بِبَعضها، وقد عَرّف الله –عز وجل– نفسه إلى عبادهِ من أجل أن تستقيم حياتهم، ويفهموا المراد مِن توالي الأيام، والمواقف، والأحداث عليهم.

وقد ذَكَرْنا في قواعد بناء النفس أن القاعدة الأولى التي تعتبر من أهم القواعد في التعامل مع الحياة هي:

(ابتلاؤك في الحياة ليس اختبارًا لقوتك الذَّاتية؛ إنما هو اختبار لقوة استعانتك). وعلى أساس هذه القاعدة ستختلف نظرتنا للحياة وتعاملاتنا مع أحداثها، أي أنك إذا فهمت أن ممارستك للحياة عبارة عن اختبار لقوتك الذاتية، سيجعلك هذا تصارع في الحياة بنفسك، وتدافع بنفسك، ستظن أن عليك تدبير نفسك بنفسك؛ أما إذا أردت أن تبني حياتك على الصواب، لكي لا تعيش عمرا طويلا متخبطا في متاهات التفكير والتعاملات مع مواقف الحياة؛ فعليك أن تأخذ وصف نفسك من الذي خلقها، كما تأخذ وصف أي شيء من صانعه لتعرف كيفية استعماله.

انظر معي إلى وصفنا من كتاب خالقنا وربنا الذي –من رحمته– بين لنا كل ما نحتاجه، ولم يتركنا حيارى نستجدي المعرفة من عقول ونظريات البشر الضعفاء:

يقول تعالى في أول سورة الإنسان: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا} ؟ [1]

نعم أتى. لقد مرَّ علينا دهرٌ طويل لم نكن فيه بشيء، وسيمرّ على العالم دهر طويل ونحن لسنا فيه، ولن يتأثر شيء من نظام العالم بذلك!

[1] الإنسان:١

وقال تعالى في سورة النساء: {وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا} كل الناس خلقوا ضعافا،[1] ولست وحدك، لكن الناس مختلفون في إدراكهم لهذه الحقيقة: فهناك شخص يَلتقط لنفسهِ صورة خارجية توهمه بأنه قَوي، ويقوم بتمثيل هذا الدّور، وهناك شخص يكتشف حقيقة ضعفه؛ لكن يبقى عليه أن يعرف مصدر قوته، وهناك شخص يعرف أنه ضعيف، ويعرف مصدر قوته.

ألا فليعلم أنه بمعرفة هذا الضعف مع معرفة مصدر القوة ستتغير الحياة، فما هي طبيعة هذا الضعف، وما هو مصدر تقويته؟

قال ابن القيم رحمه الله –بعد أن ذكر بعض أقوال السلف في تفسير قوله تعالى {وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا}-:

"والصواب أَن ضعفه يعم هذا كله، وضعفه أَعظم من هذا وأَكثر: فَإنه ضعيف البنية، ضعيف القوة، ضعيف الإرادة، ضعيف العلم، ضعيف الصبر، والآفات إليه مع هذا الضعف أَسرع من السيل في الحدور" انتهى من طريق الهجرتين (٢٢٨/١).

حين خلقك الله ضعيفا من كل وجه؛ لم يجعل اختبارك في قوتك؛ كيف وهو أعلم بمن خلق، وهو أرحم الراحمين؛ إنما جعل سبحانه اختبارك في قوة استعانتك به، وهذا يوافق مراده من خلقك؛ فقد خلقك على صورة تظهر صفاته سبحانه، وهذا شرف لك.

السؤال الآن: إن كان ذاك؛ فكيف تأتي قوة الاستعانة؟

بعد أن يمتلئ القلب بأن وصف الإنسان ضعيف يحتاج أن يمتلئ بمعرفة أخرى غاية في الأهمية، وهو في أمس الحاجة إليها؛ كي يستقيم صغير أموره وكبيرها ألا وهي: معرفة الله الذي خلقه وأوجده لأجل أن يعرفه؛ فيعبده إذا عرفه، وقد جعل روحه وريحانه في ذلك، وإلا فلا ينتظر إلا معيشة الضنك النفسي مهما توافرت له أسباب السعادة الدنيوية، وهذا يشهد له السمع والعقل والواقع، وينطق به كل منصف من أهل المشرق والمغرب.

ما علاقة قوة الاستعانة بمعرفة الله؟

انظر إلى هذا المثال: حين تحتاج الذهاب إلى طبيب وقلبك خائف من مرضك، وتسأل من حولك عن طبيب؛ فيوصف لك طبيب ماهر خبير متقن قد قام بمثل عمليتك عشرات المرات ونجح؛ بأي ثقة وطمأنينة تذهب إليه؟

[1] النساء:٢٨

من أين أتتك هذه الثقة به؟

من المعرفة التفصيلية عنه.

هذا بالتحديد ما تحتاجه عن الله بعد أن عرفت ضعفك وحاجتك الملحة لربك.

حين تظفر بهذا الفهم للحياة تختصر على نفسك الكثير من الشقاء، والله يتفضل على من يريد معرفة نفسه، والغاية من وجوده، ويسعى لذلك؛ فيرزقه الفهم وينير بصيرته.

الجهل بالله هو الذي سَبَّبَ لنا ضعف التعلق به ليحمل عنا ما يثقل كواهلنا وينقض ظهورنا من الأثقال والهموم الدينية والدنيوية؛ بل حتى إصلاح أنفسنا وتزكيتها لا نحتاج فيه لو عرفنا الله إلى كبير مشقة؛ وإنما هو جهاد قليل مع استعانة كثيرة وإذ بالغمة تنكشف، و بالهم يزول، و بمرض القلب يتعافى ويخلو مكانه للانشراح!

هل هذا يعارض الأخذ بالأسباب؟

لو كنا نأخذ بالأسباب كما ينبغي لعلمنا أن الأخذ بالأسباب هو قلب الاستعانة!

كيف ذلك؟

نحن نعلم أن الكون خلق على مبدأ التَّسبب، وأنه لا يوجد شيء إلا وله سبب، لكن أيضًا علينا أن نعلم أن الأسباب ملك لله؛ فالله هو الأول الذي ليس قبله شيء، وهو الذي يسبق الأسباب وليست هي تسبقه؛ فأنا أطلب منه أولا أن يهيئ الأسباب، وأتوسل إليه باسمه الفتاح الذي يفتح مغاليق أسباب الخير، ويفتح مغاليق القلوب أن يرزقني الأسباب المناسبة لطلبي، وأن يشرح صدري للتعامل معها، وأن ينفعني بها.

أليست هذه الأسباب من عطاء الله؟

انظر إلى قوله تعالى: {أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ}[1] تعرف حقيقة المسألة؛ فالبذرة والماء والحوْل والقوة التي عندك، كلها مِن عند الله، ثم الله فَالق الحَّب والنَّوى، ومُخرِج الثَّمرات.

[1] الواقعة: ٦٤

فقوّة تعلقك بالله معناها أن:

١. تتعلق به أن يُهيئ لك الأسباب.

٢. تتعلق به أن ينفعك بالأسباب.

٣. تتعلق به أن يُعطيك نتائج الأسباب.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

"الِالْتِفَاتَ إلَى السَّبَبِ: هُوَ اعْتِمَادُ الْقَلْبِ عَلَيْهِ وَرَجَاؤُهُ وَالِاسْتِنَادُ إلَيْهِ، وَلَيْسَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ مَا يَسْتَحِقُّ هَذَا، لِأَنَّهُ لَيْسَ مُسْتَقِلًّا، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ شُرَكَاءَ وَأَضْدَادٍ، وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ: فَإِنْ لَمْ يُسَخِّرْهُ مُسَبِّبُ الْأَسْبَابِ، لَمْ يُسَخَّرْ". انتهى من "مجموع الفتاوى" (١٦٩/٨)

إذا كان ابتلاؤنا في الحياة ليس اختبارًا لقوانا الذَّاتية؛ وإنما هو اختبار لقوة استعانتنا بالله؛ فلماذا لا نستعين به؟!

الجواب: لِضَعفِ معرفتنا به، فضعف المعرفة يُوَلِّد ضَعف الثِّقة، ثم تَشعر أنك يُمكن أن تُدَبِّر نفسك أحسن مِن تدبير الله، يعني بَدلًا من أن تَحْمِل كل هُمومك وتَضَعها عِندَ بَابِ الله، تشعر أنه لابد أن تقوم بتدبير شأن نفسك، وبعد ذلك تُقنع نَفسك قائلا: الله أمرنا بالأخذ بالأسباب!

صحيح أمر الله بالأخذ بالسبب؛ ولكنه أمر أن يفزع قلبك إليه أولا، فقال سبحانه: {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ}[١].

{عَزَمْتَ} فِعْلُ القلب، أي إذا اجتمعت إرادتك. مثلًا قررت غدًا أن تستضيف أصحابك، هنا قد عَزَمت، ففي هذه اللحظة –لحظة اتخاذ القرار وليس لحظة تنفيذه– تتوكل على الله.

فالأمر صريح بأن تتوكل حين تعزم، قبل أن تتكلم عن أسباب تحقيق مُرادك، وعن أسباب تأديب أولادك، وعن الأسباب التي تُنجِح موقفك مع ضيوفك غدًا، افزع إلى الله، فهو نِعْمَ الوكيل، الله نعم من وكلت.

[١] آل عمران: ١٥٩

حين تعزم وأنت تعرف أنه لاحول ولا قوة لك على التنفيذ، وتعلم أن الله وكيل على عباده، قد تَكفَّلَ أن يُدبِّرهُم أَحسن تَدبير، ويُصلِحهُم أحسَن إصلاح، ويَشرَح صُدورَهم، ويُيَسِّر أمورهم، هنا ستكل الأمر إليه ليهيء أسبابه وييسره.

ومن العَجَب أن تَجدهُ وكيلًا للعباد، عالمًا بأحوالهم، وهو العزيز الذي أمره ينفذ ولا يردّ، كل هذه الصفات فيه وبعد ذلك لا تتخذه وكيلا؟! هذا عَيب في التفكير، وذلك لأن تفكيرك يقبل توثيق الناس للناس، فلما يمدح لك طبيب ما، توكله أمر علاجك ثقة منك بعلمه وخبرته، ولما يمدح لك محام ما؛ توكله أمر قضيتك ثقة منك بخبرته ومهارته؛ بل وتحمد الله أن رزقك من يتولى عنك أمورك، هذا وأنت تعلم أنهم بشر ينامون وينسون، ولابد من صدور النقص والعيب في علومهم وأفعالهم؛ فكيف لا تتخذ الله الذي هو على كل شيء قدير، العزيز الذي إذا أراد أمرا أنفذهُ، العليم الخبير الحكيم الذي له كمال الصفات أجمع، كيف لا تتخذه وكيلا، وقد أمرك أن تتخذه وكيلا؟!

أليس هذا ناتج الثقة بصفات المخلوقين والجهل بصفات رب العالمين؟!

أنت تقر في الصباح والمساء أنك إن لم تتخذه وكيلا فقد أهلكت نفسك: ((لَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ)) ، وفي رواية أحمد: ((إِنْ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي تَكِلْنِي إِلَى ضَيْعَةٍ وَعَوْرَةٍ وَذَنْبٍ وَخَطِيئَةٍ وَإِنِّي لَا أَثِقُ إِلَّا بِرَحْمَتِكَ)) يعني أنت تقول: لو جئتُ أدبر سأُضيع نفسي! أو أدبَر تدبيرًا يَظهَر فيه عَواري، أو أَدبِّر تَدبيرًا أقع فيه بذنب، أو أدبِّر تدبيرًا يحصل مني فيه خطيئة، هذا تدبيرك لنفسك، فلماذا تقتنع بتدبيرك وقد جربته وخبرته؟!

أنت وكل من حولك وصفكم الله بوصف واحد: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} ؛ فإذا كانوا كلهم على حدٍّ سواء مِن جهة فقرهم فلماذا تُعَلِّق نَفسَك بالفقراء؟! ولماذا تَنتَظِر مِنهُم إمدادا أو إسعادا؟!

إنما الإيجاد مِن الله، والإعداد مِن الله، والإمداد مِن الله، والإسعاد مِن الله، وهو الذي أضحك وأبكى فلا تتشبث بأحد؛ فما ثمة مع الله أحد، تَوَسَّل إليه أن يَشرَح صدرك وأن يُهَدِّئ نفسك وأن يَجعلك ترضى عنه، فما أطيب حياة الرضا، وإن من رضي فله الرضا.

---

[1] المستدرك على الصحيحين للحاكم، هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

[2] المستدرك على الصحيحين للحاكم، هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

[3] فاطر:١٥.

قد تقول: هو –عز وجل– وكيلي وقد وَكّلته، ومع ذلك يأتيني في مواطن ما لا أرغبه!

نقول: أنت في أول لحظة تتصور أنك لا ترغبه، لكن إذا استسلمت له ورضيت عنه، كشَفَ لَك ما يُثَبِّتَك على رِضاك! لأن العَبد جاهل بما يُصلح نَفسه، وهذا مثال لتعاملنا مع أبنائنا يوضح ذلك:

ألسنا نُدَبَّر لأبنائنا ما نَرى فيه صلاحهم ؟ هل كل ما نراه لهم يناسب آراءهم وأفكارهم؟ كلكم تتفقون أن (لا)، وقد يأتي قرار تكون المصلحة فيه كلها لهم ونحن متضررون منه، ومع ذلك يَنزل عليهم هذا القَرار نزول الصَّاعِقة، ويَرُدّونه ويَدفَعونه بِكل ما يَملِكون مِن قُوة، ونحن ننظر إليهم متعجبين من جهلهم بمصالحهم،ومن انفعالهم وعدم رضاهم عنا، فما بالهم يدفعون ما ينفعهم، ولا يرون فيه ما نرى لهم من الخير؟!

ستقولون:(لقصور عقولهم، غدا يكبرون ويفهمون).

الرَّب –سبحانه وتعالى– كامل الصفات يُعاملك بنفس الصورة، وقد وَضَعَ تَحتَك سفهاء –يعني أنت الكبير وهُم صِغار سُفهاء– مِن أجل أن تفهم نفس الصورة، من أجل أن تفهم أنه لما تأتيك أفعال الله، لابد أن تؤمن أنه حكيم، ثم تَتَرَيّث وتَنتظر، لأنه لا يمكن أن يأتي مِن عند الله إلا الخير، و((من رضِيَ فَلَهُ الرضا، ومن سَخِط فَلَهُ السِّخَط)) [1] . وسَخَط الله –عز وجل– حين ينزل على أحد يجعله يَنقَلب، فكل ما يكون خيرًا يصبح في تصوّره شرًا.

إذًا لو وَكَّلَ العبد ربه لابد أن تقع في قلبه الثقة، لأن الله –عز وجل– موصوف بالكمال، فلا يأتي منه إلا كل خير، لكن نُفوسنا هي التي فيها أمراض وتحتاج إلى علاج.

وأحيانًا لا تُشفى هذه النفس إلا بِمِشرَط! لا تشفى إلا إذا أتاها مِن الأقدار ما يؤلمها فيخرج منها المرض، وها أنت تذهب أحيانا إلى الطبيب حاملا له ابنك أغلى ماعندك؛ ليشق بطنه بيديه، وتحت علمك، وبإمضاء يدك، وأنت ممتن له، لا يأتيك شعور أنه سيفعل ذلك ليهلكه، ولا يأتيك شعور أنك أنت ستهلكه؛ بل تعلم أنك لا تريد إلا مصلحته حتى لو

[1] رواه ابن ماجه في سننه وقال الألباني حسن.

كانت هذه المصلحة تحتاج إلى مشرط، فأين أنت من هذه المشاعر في معاملة الله الذي أعلمك بنفسه أنه أرحم الراحمين بك، وأعلمك رسوله أنه أرحم بك من أمك التي جاورت قلبها قبل أن تراك عيونها، وأعلمك أنه أعلم بخيرك وأقدر على إيصاله إليك من نفسك؟!

متى نحتاج اسم (الوكيـل)؟

نحتاجه بعدد أنفاسنا !

طالما أن لنا شؤوناً في هذه الحياة تحتاج إلى تدبير؛ نحتاجه أن يكون وكيلنا عليها ليدبرها، وما أكثر حاجاتنا التي تحتاج إلى تدبير؛ بل نحن نتقلب طوال الوقت في التدبير:

تُدبّر نَفسك، تُدبّر أولادك، تُدبّر أكلك، تُدبّر ضيوفك، تُدبّر بيتك، وكلما كثرت حاجتك للتَّدبير كثرت حاجتك لاستعمال اسم الوكيل.

سنرى قصة وردت في البخاري تُبيّن التَّعامل مع اسم الوكيل..

مِن عجيب ما قصّه النبي –صلى الله عليه وسلم– عن بني إسرائيل في هذا الباب ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسْلِفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ. فَقَالَ: ائْتِنِي بِالشُّهَدَاءِ أُشْهِدُهُمْ. فَقَالَ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا. قَالَ: فَأْتِنِي بِالْكَفِيلِ. قَالَ: كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلًا. قَالَ: صَدَقْتَ. فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى. فَخَرَجَ فِي الْبَحْرِ فَقَضَى حَاجَتَهُ ثُمَّ الْتَمَسَ مَرْكَبًا يَرْكَبُهَا يَقْدَمُ عَلَيْهِ لِلْأَجَلِ الَّذِي أَجَّلَهُ فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا فَأَخَذَ خَشَبَةً فَنَقَرَهَا فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعَهَا ثُمَّ أَتَى بِهَا إِلَى الْبَحْرِ).

(فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ تَسَلَّفْتُ فُلَانًا أَلْفَ دِينَارٍ فَسَأَلَنِي كَفِيلًا فَقُلْتُ كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلًا فَرَضِيَ بِكَ وَسَأَلَنِي شَهِيدًا فَقُلْتُ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا فَرَضِيَ بِكَ وَأَنِّي جَهَدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ فَلَمْ أَقْدِرْ وَإِنِّي أَسْتَوْدِعُكَهَا. فَرَمَى بِهَا فِي الْبَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ ثُمَّ انْصَرَفَ وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ. فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَبًا قَدْ جَاءَ بِمَالِهِ، فَإِذَا بِالْخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَالُ، فَأَخَذَهَا لِأَهْلِهِ حَطَبًا، فَلَمَّا نَشَرَهَا وَجَدَ الْمَالَ وَالصَّحِيفَةَ. ثُمَّ قَدِمَ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ فَأَتَى بِالْأَلْفِ دِينَارٍ فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي

طَلَبِ مَرْكَبٍ لِآتِيَكَ بِمَالِكَ فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ. قَالَ: هَلْ كُنْتَ بَعَثْتَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ؟ قَالَ: أُخْبِرُكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي جِئْتُ فِيهِ. قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتَ فِي الْخَشَبَةِ. فَانْصَرِفْ بِالْأَلْفِ الدِّينَارِ رَاشِدًا) . وهذا مما صحَّ عن النبي [1]-صلى الله عليه وسلم- مِن قصص بني إسرائيل.

فلو وَكَّلت الله -عز وجل- بأمر، حتى لو كان بينك وبين من تعامله مثل هذه البُحور سيوصلهُ الله -عز وجل- لصاحبهِ!

انظر جيدًا إلى الأمر: لا شخص آخر أخذ الخشبة، ولا شخص آخر فتح الورقة، ولا شخص آخر استلم هذه الدنانير، فهو جعل الله -عز وجل- عليه وكيلًا ونِعْمَ الوكيل، بيدهِ الأمر، بيدهِ مقاليد كل شيء.

لما تتخذ الله وكيلا، وتوكّله على أَمرِك فتقول: (يا رب دَبِّرني فأنا عاجز لا أستطيع أن أدبر شأن نفسي) انظر ماصفات مَن وكّلته: على كل شيء قدير، بكل شيء عليم، حكيم، رحيم، فلمَّا يدبّرك سيدبّرك بهذه الصفات، فلمَّا تتخذه وكيلًا، وتكون قوة تَعلّقك به صادقة، لا يمكن أن يَخذِلك! لكن لابد أن تتصور أن المسألة تحتاج إلى توحيد.

ما المقصود بالتوحيد في التوكيل؟

التوحيد في التوكيل يستلزم منك أمرين:

١. أن تتخذه وكيلا

٢. وأن لا تتخذ غيره وكيلا.

وهذا التوحيد تعامل به أسماء الله وصفاته سبحانه.

ثم اعلم أن الله تعالى- يختبرك حين يتعلق قلبك به توكُّلًا عليه، فقد يأتيك مِن الناس مَن يقول لك:(أنا أفعل لك، أنا عندي واسطة، أنا أفعل كذا وكذا)؛فلا يكن تعلقك بهذا.

[1] رواه البخاري في صحيحه، كتاب الكفالة، بَابُ الكَفَالَةِ فِي القَرْضِ وَالدُّيُونِ بِالأَبْدَانِ وَغَيْرِهَا، ٢٢٩١.

ربما تقول هنا: لعل هذه أسباب هيأها لي بسبب توكلي عليه؛ فكيف أعرف أنها ليست كذلك؟

نقول: اعلم أن هذه يُمكن أن تكون اختبارًا وليست أسبابا، لذا عليك قبل أن تقفز إلى الأسباب أن تتعلق بهِ -سبحانه وتعالى-، استعِن به، واستهده واسأله: رب هل آخذ بهذا السبب أم لا؟... استخِر.

المهم أن تعلم أنك حين توحده في التوكل ستأتيك اختبارات، وأن تعلم أن الصعوبة كلها هي أن تجعله وحده وكيلك؛ لأنك قد تجد نفسك قويا ماهرا في بعض الأمور، وأنك قد فعلتها من قبل مرارا وتكرارا؛ فتظن أنك قادر عليها؛ فتصبح نفسك هي الحاجز بينك وبين التوكل، وقد اتفقنا أن خبرتك السابقة هي نقطة بلائك؛ فكلما ازددت خبرة زادت ثقتك بنفسك وشعرت أنك في غنى عن الاستعانة بالله، وما هذا إلا خذلان.

من رحمة الله أنك تذكر بهذا في أذكار الصباح والمساء، فها أنت تقول لربك: (لَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ)، يعني: لا تجعلني يارب أدبر نفسي ولا بمقدار طَرفة عين، ومعنى هذا أنك توكله عنك في أقل الأمور، وفي أول الدعاء تقول: (أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ)، دبّرني واجعله صالحًا لي.

ثم لو تأمّلت في قولك (أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ) وفهمت ما معنى الصّلاح وما معنى أن تكون صالحًا، فهمت حينها أن (أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ) ليس معناها أنه يجب أن يوافق هواك، لا، إنما تعني: يا رب دبّرني في شأني بما يزيدني صلاحًا لأن أُجاورك في جنّتك، لأن معنى عبارة (هذا عبدٌ صالح) أنه عبدٌ صالح لمجاورة الله في الجنّة، فالعباد يصلحون للمجاورة بعد أن يصلحهم الله، فأنت تقول: (أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ) يعني أجر عليَّ في شؤوني وتدبيري ما يجعلني صالحًا لمجاورتك. ثمَّ تقوم بِدَفعِ عَدوَّك الأكبر الذي لو تُرِكتَ له لفسدت، بقولك: (لَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ)، وفي رواية لأحمد، قال النبي -صلى الله عليه وسلم- فيها: (إِنْ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي تَكِلْنِي إِلَى ضَيْعَةٍ وَعَوْرَةٍ وَذَنْبٍ وَخَطِيئَةٍ وَإِنِّي لَا أَثِقُ إِلَّا بِرَحْمَتِكَ) فهذا كلام واضح في أن العبد إذا اتَّكل على نفسهِ في تدبير شؤونه ضاع!

اتفقنا على أن النسيان أمر طبيعي وعادي، ومن أجل ذلك قال الله تعالى: {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ}[1] فمثل هذه المفاهيم لن تستملك قلبك مِن أول ما تسمعها، إنما لما تسمعها أول مرة تكون كأنها خاطر، ثم مع تكرارها تَتشبّع بها، ثم مع تكرارها والصَّدق في إرادة التمسك بها يسددك الله -عز وجل- في المواقف، فالتسديد لا يأتي إلا مِن عند الله -عز

[1] الذاريات٥٥

وجل-، لكن مِثل هذا لا يَنفع فيه إلا الإعادة والزيادة حتى يتشبّع قلبك، وكلما زِدْت كلما زاد عدد المواقف التي تُوَفَّق فيها، لكن ليس من مرة واحدة، ففي خلال اليوم كلما زِدْتَ سَماعًا عن وصف الله وزدْتَ لجوءًا له، قل عَدد السّاعات التي ينفصل فيها قلبك عن اللجوء لله، فنحن تأتينا ساعات ولحظات ودقائق تنفصل فيها قلوبنا عن التعلق بالله، فكلما ازددت ذكرًا وكلما تذكرت بالعلم، وكلما فهمت عن صفاته -سبحانه وتعالى-، قلّت هذه الساعات التي ينفصل عقلك فيها عن ذكر الله -عز وجل-.

ماذا تفعل إذا مَكّنك الله وأصبح عندك خبرة في بعض الأمور؟

ذَكِّر نفسك أنك لم تكن تعْلم وعلَّمك الله، لابد أن تُذكِّر نفسك بأصلك، ولو لم تفعل هذا ستدفع الثَّمن قريبًا!

مثلا: امرأة متمكِّنة في الطبخ، فإذا قيل لها: (افعلي لي كذا وكذا) ترد فتقول: (هذا أمر سهل، فقط أعطِني ربع ساعة). فماذا يفعل الله بها؟ في الغالب أنها تخذل، تأديبًا لها، لأنها نَكَبَت نَفسها بشعورها بقوة قدرتها. في المقابل قد تتكلم أمام الناس فتقول: (هذا الشيء سهل عليَّ مثل شربة الماء) ويتركك الله -عز وجل- ويعاملك بِحِلْمِهِ

لكن كلما ازددت عبادةً وطاعةً كلما أدبك الله بسرعة، وكلما أتى هذا التأديب بسرعة أكثر دلَّ على أنك قريب مِن الله. فإذا تمكنت مِن الشيء، دائمًا ذَكِّر نفسك بأن الله علّمك، ثم اعلم أن هذا الذي تمكّنت منه قد تأتيه عوائق لا تستطيع ردها:

فمثلا صداع قليل يأتيك في رأسك فلا تستطيع أن تنظر إلى الجهاز، أو أن تعمل على الانترنت، وقد كنت واثقًا أنك ستتم أمورك،

أو ينقطع الإنترنت فجأة وأنت مطمئن أنك تستطيع إكمال عملك من شبكة أخرى؛ فتكتشف أن (الكيبل) في البحر الأحمر قد انقطع! وفي الواقع حين حصل هذا مرتين متواليتين صدم أصحاب القلوب المعلقة بالإنترنت، وبعض الناس سافروا وقد اطمأنوا أن بعض ملفاتهم وأشغالهم سترسل لهم عن طريق الإنترنت وفجأة طلب منهم الانتظار لأيام!

فهؤلاء خرجوا مطمئنين أن أمورهم مدبرة؛ ثم يفاجؤون بأن كل شيء قد توقف، والمفترض هنا أن يعلمنا هذا الموقف أننا لا نستطيع الاعتماد على تدبيرنا لأنفسنا، وأن علينا أن نكون أقوياء في التوكل على الله حتى لو توافرت لنا كل أسباب نجاح العمل.

أحيانا كثيرة نذكر أنفسنا أن لا تنسى أمرا ما، ونضع ما يذكرنا به؛ ثم لا نذكره إلا بعد فوات الأوان، وكم مِن المرات وضعنا أشياءنا عند الباب كي لا ننساها حين نخرج؛ ثم ننساها ، ونحن أصلًا خارجون لأجلها! هذا تأديب عام، مِن أجل أن تعرف من أنت! فلو اتخذته وكيلا لذكّرك بها في الوَقت المناسب. ولا تقل: (أنا ذاكرتي ضعيفة) فذاكرتك في قلبك، وقلبك هذا بقدر امتلائه بكمال الله، وبقدر امتلائه بالتعلق بالله، بقدر ما يذكّرك الله ما ينفعك، وإن لم يذكرك تعرف لم لم يذكرك ، لسببٍ أو لآخر.

لاترهق نفسك بتصور أن عليك تدبير شؤونك كلها، وأنه يجب أن تبقى ذاكرًا للأشياء وأن عليك أن لا تُخطئ!

لا تَحْمِل بكفّيك مسئولياتك ومسئوليات أولادك، فأنت في الأصل ضعيف، ولو أنك حملت كأسَي ماء مع بعضهما، وأردت أن تحْمِل ورقة مِن الأرض، ستحتاج لتركيز وقوة إتقان حتى لا تسكب الماء، وفي النهاية لابد أن تسكب من الماء قليلا، وهكذا بنفس هذه الطريقة سيكون تدبيرك لشؤونك؛ فمهما بذلت جهودك، ومهما خططت وحسبت بالورقة والقلم، لا يحصل في النهاية إلا ما يريد الله.

هل معنى هذا الكلام أن لا نُخطط؟! لا، ليس هذا المقصود؛ بل أول ما يشتعل في قلبك إرادة شيء استعن بالله.

لما تقول: (جاءتني فكرة: ما رأيكم أن نفعل كذا وكذا) سنناقش عبارة (جاءتني فكرة) ونقوم بإعرابها:

جاء (فعل) الياء (ضمير مفعول به) فكرة (فاعل)

مِن أين أتت هذه الفكرة؟ وكيف ستكون هذه الفكرة فاعل؟ ومن أين ستأتي الأفكار إلا أنها مواهب يهبها الله؟! فمَن قَدَحَ في ذِهنَك أصلا هذا المخرَج أو هذه الفكرة؟ ما قَدحها إلا الله، فأول ما تشتعل في نَفسك الحاجة، أول ما تَعزِم، تَعَلَّق بالوكيل مباشرة؛ فيُسدِّدك، وتجد نفسك حينها لا تَكتُب إلا ما يَنفعك، ولا تُخطط إلا ما يُناسِبَك. أنت الآن في عُنق الزُّجاجة، فمن أجل أن يتوسع عنق الزجاجة استعن فيُفَرّج عليك، إلى أن تصل إلى القرار السليم.

هناك ثلاث اختبارات مُتكررة في حياة العبد:

١. {وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ} الاختبار الأول في (الرضا): أن تعْلم أنه هو الذي مسَّكَ بالضر، فهل ترضى عنه بعد أن مسَّك بالضر في وقت وقوعه وبعد وقوعه؛ فليس الرضا في وقت وقوع الضر فقط، وانظر إلى مقياس الرضا في حديث رسول الله–صلى الله عليه وسلم – كما صحّ في البخاري: (إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى) ، فهذه أعلى درجات الصبر، والذي يتصبّر بعد الصدمة الأولى بقليل أفضل من الذي يتصبّر في اليوم الثاني، وهذا أفضل من الذي لا يتصبر نهائيًا، وهكذا فقس .لكن الصبر الحقيقي هو: (إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصدمة الأولى).

والضُّر هذا هو أي شيء يضرك بتفاصيل الحياة، ومما لا يُعقل أن البعض إذا كان يمشي فاصطدم بالباب أخذ يَسُب الباب، والآن لما يَصُعب عليهم شيء يقومون بلعنه! هلاّ قلت (بسم الله)! استحضر الاستعانة يفتحها الله لك، لكن كل شيء أصبح مقلوبًا مع الأسف!.

٢. {وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هو} الاختبار الثاني: ستطلب الكشف مِمّن؟ {فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هو} وهذا يُناسب اسم الوكيل. وقد تقول: (كيف يكشفه الله)؟ نقول: نعم، الله –عز وجل– يُعامِلك بلطفه، وألطافه لها صورتان:

الصورة الأولى صورة لطف محض لا علاقة لك به، فأنت توكلهُ وهو يأتيك بالخير مِن حيث لا تحتسب، وأنت لم تحرّك ساكنا، طُرِقَ بابك فأتاك الخير، هذا نوع مِن اللطف.

الصورة الثانية مِن اللطف وكشف الضُّر هي (التَّسخير)، يعني يُسخّر في عقلك فكرة، يُسخّر لك شخصا، يأتي في بالك مثلًا جِهة معينة تذهب لها، هذا هو التَّسخير. ما معنى التسخير؟ أن يُسخّر الله –عز وجل– لعباده أفكارًا أو أشخاصًا تكون سَببًا في جَرَيان الرِّزق منها، أي أن عقلك يكون غافلًا تمامًا عن هؤلاء ثم يُلقيه الله –عز وجل– في قلبك إلقاءً.

٣ .الاختبار الثالث في سورة الزمر {فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ} كقولك: (جاءتني فكرة) أو تقول: (أنا لدي ميزة خطيرة، لو يأتيني ضِيق يُلقى في ذهني المخرج مباشرة).. مثلما قال قارون. فإذا أصاب شخص الضر، ودعا الله، إلى هنا قد سار في الاختبارين الأوليين بطريقة صحيحة، {ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً} إذا آتيناه فكرة أو سخّرنا له أحدًا يُساعده، ماذا يفعل؟ يقول: {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ} يعني أنا، فمثلا يقول: (أنا دائمًا في المواقف قوي ثابت، عندي حكمة) إلى آخر هذه الوصوفات التي يصف الإنسان بها نفسه.

[1] رواه ابن ماجه في سننه وقال الألباني صحيح.

لكن انظر ماذا قال الله –عز وجل–: {بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ} اختبار، {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} هذه هي القضية أن أكثرهم لا يعلمون، فهذا ثالث اختبار: يعني مسَّك الله بضر، عَلِمْت أنه منه، ورضيت عنه، ودعوته، إلى هنا أنت تمشي على الطريق الصحيح، لكن لما أتتك النِّعمة اغتررت.

نحن ندخل في هذا الاختبار بِعدد أنفاسنا، فمثلا يدخل أولادك الاختبارات وتدعو الله أن ينجحهم، فما هو إلا أن يأتيك خبر نجاحهم حتى تقول: (أصلًا أنا كنت أذاكر لهم، أصلًا أنا كنت أسهر عليهم) كل هذا يقال عنه: {بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}.

لما تقرؤون كتاب الله انظروا لهذه الصفات بقدر ما تستطيعون: {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ}، {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ}، {لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ}، {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ} فالآيات لما تُختم بمثل هذا ابحث عن الوصف الذي سبقها، يعني ابحث مَن هذا الذي قال الله –عز وجل– عنه: {لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ}. انتبه، فهذا معناه أنه يجب أن تكون ضِد هذا الوصف مِن أجل أن تكون ممن يعْلم. مثل ما ذَكرنا سابقًا في مسألة الأمثال وأنه {وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ} فلمَّا تأتيك الأمثال في القرآن وتجد نفسك لا تَعقِلها، معنى ذلك أنك جاهل، وهذا هو الجهل الحقيقي، لأنك في قبرك ستُسأل: مَن ربك؟ ما دينك؟ مَن نبيك؟

متى تتخذ الله وكيلا؟

في كل وقت، بعدد تدبيرك لشؤونك. قد تقول لي: (هذا أمر صعب!) نقول: ابدأ مع نفسك ببرنامج، ابدأ بالشيء الذي تراه مُهمًّا، بالشيء الجَوهَري في حياتك، مثلًا: صلاح أبنائك، صلاح زوجك، أو صلاح نفسك. نفسك هذه اشكها إلى الله، واتخذه على نفسك وكيلًا، واطلب منه أن يُهيّئ لَك الظروف، ويسدّدك، ويكون سمعك الذي تسمع به، وبصرك الذي تُبصر به، لأنك الآن تبحث عن الحكمة في التصرفات، فنحن نكبر ونرى أن كثيرًا مِن قراراتنا السابقة كانت عبارة عن طَيش، فلمَّا تبدأ تدخل في مرحلة النُّضج، وترى أن كثيرًا مِن قراراتك السابقة كانت طَيشا؛ ستتمنى الحكمة في القرارات والمواقف، ومِن أين لك الحكمة إذا كنت ستبقى في نفس الطريقة ونفس التفكير؟ لاتتصور أن السِّن سيزيدك شيئًا، لا، السن في العادة لَمَّا يَزيد مِن غير دين يَزيد معه الحقد ويزيد معه الطَّيش، وتزيد القسوة!

مثلا قد حدثت لك مواقف مع الناس، فهذا طعنك في ظَهرك، وهذا فَعَل كذا، وهذا فَعَل كذا، وهذهِ كُلها تَجارب ماضية، والآن بعد أربعين سنة بعد كل التجارب الماضية التي عِشتَها، لما تتعامل مع أحد يكون في قلبك كَمية مِن الأحقاد على مَن مَضى، فَتُعامِل هذا الذي أمامك بكمية الأحقاد الماضية، لماذا؟ لأنك تنظر إليه وتقول: (عسى ألاّ تكون مثل فلان الذي فعل بي كذا، أو ربما تكون مثل ذاك، أو تصرفاتك مثل تصرفات كذا) فتأتي بسلسلة من التاريخ الماضي.

مِن أجل ذلك حين يأتي التوحيد يعْلَم العبد أنه يُعامِل الله، وأنّه إذا وكّله –عز وجل– على أمره ما أتاه إلا كل خير، فيأتي مِن هذا الشخص الذي أمامه بالخير ويَصْرِف عنه شرّه.

أنت في الماضي خُذِلْت لأنك اعتمدت على نفسك، ووثقت بأنك صاحب خبرة وتفهم، أو أنك لست بجديد على هذا البرنامج، أو أنك لست غرًا في معاملة الناس، فكلما ازددت ثقةً بما عندك؛ كلما أتاك الأمر مِن جهة لم تتوقعها أبدًا، مع أنّ الله –عز وجل– لا يتركك هكذا؛ بل يعطيك إشارات، لكن الشخص لما يثق في نفسه يصبح أَعمى عن هذه الإشارات، ونحن اتفقنا أنّ طريق الهدى يُعرض على كل أحد، لكن هناك مَن استعان واستهدى فأرشده الله، وهناك مَن اعتمد على نفسه ووثق بها فخذله الله.

مثال: قد يأتيني أشخاص يشبهون بعضهم بعضًا في سلوكهم، فمثلا امرأة عانت مِن أخيها القاسي، فجاء ولدها يشبه أخاها في طِباعِهِ، وهذا أمر لا ننكره أبدًا، فنحن سابقًا ذكرنا أن الإنسان عبارة عن طَبائع يُبتلى بها، وعبارة عن عقائد يكتسبها. فكيف سأعامِل هذا الشخص؟ هل سأُعامِلهُ بالطريقة التي كنت أعامل بها أخي؟ هل أنا أصلًا نجحت مع أخي عندما عاملتهُ بهذه الطريقة؟ لا، فأنا لو عاملت ابني بنفس الطريقة لن أنجح، والدليل أني لم أنجح مع أخي، فلمَّا يأتيك بلاء مثل هذا النوع، المفترض أن تشعر بأنك فشلت، فما دام أنك فشلت في التعامل يجب أن يزيدك هذا تعلّقًا بالله، فعلى الأقل في هذا الموقف استعمل اسمًا واحدًا مِن أسماء الله، استعمل اسم الفتاح أن يَفتح لك مغاليقَ قلبهِ وأن يُسدّدك في التَّصرفات معه.

هناك أشخاص يحيرونك في التعامل معهم؛ تأتي بهم مِن اليمين فلا تخرج معهم بنتيجة، وتأتي بهم مِن اليسار فلا تخرج منهم بشيء أيضًا، فالمفترض أن يزيدك مِثل هؤلاء تَعلّقًا بالله، ومِن أجل ذلك لما يأتي التوحيد مع الخبرة، تقول: (أنا جرّبت نفسي وتعاملت بعقلي ففشلت، ليس لي إلا الفتاح يفتح قلبك) ونحن عشنا مواقف رأينا فيها تسلُّط فلان على الناس في تعاملاته، يعني طوال الوقت صوته عالٍ وكلامُهُ كثير، ثم هذا بنفسهِ يأتي إلى شخص ثانٍ ويَتكلّم معه بِأدب، وهذا من فتح الله لهذا العبد في قلب هذا العبد، فما يَضع هذا إلا الله، مع أنّ الشخص الثاني ليس فيه شيء زائد عن الناس ولا هو قوي الشَّخصية، لكن الشخص الأول الذي معه شرّ، يتأدب لما يتعامل مع الثاني، لماذا؟ هذا أمر ليس بيد أحد، إنما الله –عز وجل– يفتح على قلب فلان، مِثل مَن هُزِم بالرُّعب من مسيرة شهر، أي أنّ هذا شيء يلقيه الله –عز جل– في قلب الذي أمامك.

وأنتم تجدون كثيرًا مِن الشَّرِكات سواءً في التغذية أو المطاعم، يتساوى المنتَج عندهم، لكن هل مع تساوي المنتَج يُقبل الناس عليهم نفس الإقبال؟ لا، فهناك أناس يفتح الله عليهم باب الرزق، وأناس يعملون مثل هذا المنتج ويقلّدون اسمه، وأيضًا يُخرِجون مُنتجًا بنفس لون منتجه، ثم لا أحد يقبل عليهم، لمـاذا؟ لأن الله –عز وجل– فتح لهذا وأغلق على ذاك.

فأنت الآن جَرَّبت وأُغلِقَ بينك وبين شخص ما، وليكن أخاك مثلا، فلا تعد التجربة وتربط بينه وبين ابنك. قد تقول لي بأنهما يملكان نفس الشخصية؟ نقول: لكنك فشلت في التعامل الأول، فالفشل هذا يجعلك تعيد تفكيرك، وأنا أقول هذا وأعلم أنه ليس سهلًا، لأننا نرتبط بشخصية معينة أُبتلينا بها، فإذا وجدنا أحدًا آخر يشبهها؛ سيجعلنا هذا نخرج ما في أنفسنا قبل أن يتكلم من أمامنا ، ففي مثال الأخ والابن، سأُفرّغ في ابني كل الذي عندي، أنا أتكلم عن الواقع، لكن الواقع هذا خاطئ، المفترض أنه لما يأتيني شخص مثل هذا، أزيد تعلقًا بالله وأزيد رجاءً، خصوصًا لو رأيت نتائج الخيرة، فأنطرح بين يدي الله أن يفتح لي في قلب هذا، خصوصًا أن الابن أغلى وأهم مِن الأخ.

ومن أجل هذا نقول: انتبه، لا تزدد خبرة وأنت بعيدٌ عن التوحيد، لا تزدد خبرة وأنت لا تتصور أن الله –عز وجل– هو سبحانه وتعالى الذي يُلقي في قَلوب العِباد حسن التصرف والحكمة في التعاملات، فلا تتصور أنك حكيم بنفسك، ولا يأتي أحد يتصور أنه سيكسب أبناءه بِفكره وعقله، ولا سيكسب زوجه بمهارته أو بجمالهِ أو بحسن تصرفاته، التَّسديد مِن عند الله، فاتخذه وكيلا، هو نِعْمَ الوكيل، يعني لو وَكّلتَهُ على نفسك يُسَدّدك أن تتصرف كما يُحب ويرضى، أما التي تشعر أنها مَلَكَتْ زوجها ومَلَكَتْ قلبه بمهارتها؛ فستأتيها قاصمة في نهاية الأمر، لكن كونك تعرف أنه ليس منك، وتدعو أن يا رب سخره لي وأصلح قلبه، هذه من النِّعم: أنّ الله –عز وجل– يُبَيّن للعبد في ثنايا حياته أن هناك ثغرة، وأنك ناقص ولست بكامل، فلا أحد يتصور أن هذا الشخص سيبقى طول عمره صالحًا ولن يفسد، وأنه لو صلح فسيصلح بجمالي أو بأسلوبي أو بكلامي أو بلباقتي، فحتى لما ندخل على الناس ونكلّمهم، في أحيان كثيرة ندخل عليهم متصورين أنه ما دام أنا المتحدّث فسيفهمون وسيقبلون، وهذا موجود حتى في طلاب العلم والدعاة إلى الله، كلمة (ما دام أنا) هذه ستأتي بالطَّامة، وسيأتي الكلام مِن غيرك أكثر ذلًا وتواضعًا لله؛ فيشرح الله الصدور له.

ومثل ذلك حين نُطلِق ألسنتنا على أولاد الناس، ونعيب على آبائهم سوء تربيتهم لهم، وننتقدهم كما فعل الناس بالإمام مالك الذي كان شيخ الدنيا في زمنه، وكان له ولد ليس على سلوك مستقيم، فكان يقول حين ينتقدونه أن المرَبي الله، يعني أن الله هو الذي يربّي عباده، فأنت تعجز، ليس لك حول ولا قوة.

ونحن الأمهات نعلم يقينًا أن المرَبي الله، لأننا نَعجَز معهم، نأتي بهم مِن اليمين فلا يَستجيبون، نأتي بهم من اليسار فلا يَستجيبون، نفعل لهم ما نفعل فيأتون بعكسهِ، وأنتم ترون ما ترون، فهذا كله يجب أن يزيدنا تعلقًا بالله، ومن أجل ذلك أتدري لماذا ((الْزَمْ رِجْلَهَا فَثَمَّ الْجَنَّةُ)) [1] ؟ لأنك ترتفع عند الله بقدر ما عندك مِن تعلّق بالله، والمفترض أن أولادنا يزيدوننا ذلًا لله وانكسارا، واستعمالا لاسمه الوَكيل، وذلك بأن نتخذه عليهم وكيلًا ليسددهم ويسددنا في التصرف معهم.

نبدأ دراسة الاسم مِن جهة وُرودهِ.

ورد اسم الوكيل في القرآن (١٤) مرة، فتكراره يَدل على شدة حاجتنا له، والمواطن المتعددة التي نستعمل فيها هذا الاسم، وقد اتفقنا أن كل اسم يتضمن صفة ويستلزم صفات.

متى تتعامل مع اسم الله (الوكيل)؟

لنجيب عن ذلك سنتتبع مواطن وروده، أو بعضها:

١. نبدأ بآية آل عمران: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} في هذه القصة قيل للنبي[2] -صلى الله عليه وسلم- أن قريشا قد اجتمعت له؛ فماذا كان موقفه وموقف المؤمنين معه؟ قالوا: حسبنا الله، يكفينا الله، وكيف لا وهو نعم الوكيل؟!

لما يُخيفك أَحد مِن النَّاس ماذا تقول؟ (حسبنا الله ونعمَ الوكيل).

إذًا متى تستعمل اسم الوكيل؟ إذا خَشيتَ مِن ضررٍ يقع عليك مِن أحد، خصوصًا لو جاء هذا الضَّرر بصورة التَّخويف، أي أنّ أحدًا جاء يُخَوّفِك مِن هذا الضرر، يقول لك مثلًا: (عامِل فلانا جيدًا؛ وإلا فإن وراءه شر). ولابد أن يكون في داخلك مُعْتَقَد أن كل الأدعية هذه مثل السيف، والسيف بضاربهِ، أي أنّ السيف يقطع ولا توجد فيه أيّ مشكلة، لكنه يحتاج يَدًا قوية تَضرب به، فعلى حسب قوة اعتقادك ينفعك الدعاء.

---

[1] رواه ابن ماجه في سننه وقال الألباني صحيح.

[2] آل عمران ١٧٣.

من أجل ذلك يأتي الناس في أحيان كثيرة إلى أدعية معينة ويذكرونها في مواطن، وقد تكون المواطن صحيحة؛ ثم بعد ذلك لا يخرج بنتيجة، بعض الناس مثلا يقرؤون آية الكرسي عند النوم، وقد أتى الوعد أنه لا يَقرَبك شيطان، لكنهم ينامون ويحلمون بأحلام مزعجة، فمـاذا نقول لهم؟ نقول بأن آية الكرسي مثل السَّيف، والسَّيف بقوة ضاربِهِ، فماذا يجب أن تفعل في قلبك؟

أولًا تعتقد بكل الموجود في آية الكرسي، ثم تَتلوها بِلسَانك، ومِثله لما تَخاف من أحد لا تتخيل أن حروف هذا الدعاء هي التي سَتنفَعك، حروف هذا الدعاء عبارة عن تَرجمة لاعتقاد قامَ في قلبك، وعلى ذلـك كل الأدعية تستعمل بهذه الصورة، فلمَّا تأتيك وعود عظيمة على أدعية لا تستغرب، لأن هذه الوعود العظيمة مَبنية على فَهمك لهذا الدُّعاء، مِثل سَيد الاستغفار، فقد أتاك وَعد أنك إذا قلت سيد الاستغفار في الصباح ومِتَّ، تدخل الجنَّة، ما بينك وبين الجنَّة إلا الموت، وكذلك في المساء، وهذا الدُّعاء لا يأخذ من الوقت الكثير، فلماذا هذا الوعد العظيم على هذا النص؟ لأنك لو فهمت تفاصيلهُ، لو وَقَعَ في قلبك قوة الذُّل، وقوة البَراءة، وقوة الخوف من ذنبك، كل هذا مُؤهِلٌ لك أن يُغفَر لك، فَتُقبِل على الله مغفورًا لك.

نشّط اعتقادك، يعني اقرأ معاني هذا النص مرة أخرى، واقرأ ما يدل عليه، نشِّط اعتقادك مثلًا في اسمه الغفور، فلمَّا تُنشّط اعتقادك في اسمه الغفور ويأتيك سيد الاستغفار سَيَنْشَط. أرأيت كيف يستعمل الناس الإبر المنشطة لتتحرك أبدانهم؟ كذلك يفعل تكرار العلم في قلبك: العلم الجديد رداؤك، وتكرار العلم القديم مُنَشِّط يُحَرِّك قلبك، ولا تنس قوله تعالى: {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ}[1] .

ففي آية آل عمران قيل للنبي –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه رضي الله عنهم: {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ} يعني جاء الذي يُخيف بالمواجهة، فماذا تفعل؟

قل: {حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}.

٢. آية النساء:{وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا}[2]

{وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ} أي أنّ هؤلاء المنافقون يقولون طاعة، سمعًا وطاعة سنفعل، {فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ} يعني إذا خرجوا من عندك {بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ}.

[1] الذاريات:٥٥.

[2] النساء:٨١.

{وَاللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ} هذا على وجه التهديد.

{فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ} اتركهم. لا تحمل هَمَّهُم.

مشكلة النفاق، أنهم يكونون في صفوفك: داخل بيتك، داخل مجتمعك، داخل طلابك لو كنت معلما، داخل مدرستك لو كنت مديرا، داخل اجتماعاتك لمن له اجتماعات، المهم أنك قد تجد داخل مجتمعك الصغير شخصًا منافقًا يبيت لك ما لا يرضى الله من القول، لكن مَن هو؟ وما حالهُ؟ وماذا يبيّت؟ وكيف يريد أن يَصِل؟ كل هذه هموم تجعلك لا تنام الليل، وهي ليست مثل الحالة الأولى، الحالة الأولى عدوك فيها واضح، أما الحالة الثانية فأشد صعوبة؛ لأنها من الدَّاخل وخَفِيّة، وكل شخص يقول لك رأيًا في هذا الذي تَشُكّ فيه، وكل شخص يوجّهك فيه توجيهًا، فلا تعرف في النهاية ماذا تفعل، وماذا يريدون أن يفعلوا، وماذا يدبّرون وماذا يخطّطون...إلخ. مَكائد تشغل بالك ووقتك، وتلهيك عن مهمات أمورك، وهذه تكون بين النساء أكثر، كما في مسائل تتصل بالتعدد، أو يمكن أن تحدث أيضًا لما يكون نساء الإخوان مع بعضهم، فهؤلاء لوحدهم عندهم مؤامرات وقصص وحكايات، فتجد أنهم يجلسون في المجلس يظهرون لك الحب والنصح، وبعد ذلك ينقل لك كلامًا عن تصرفات بعضهم ضدك، وكلامهم عليك، وأنت في حيرة: هل تصدق ما يقال، أم تصدق ما رأته عيناك من نصحهم؟!

الحل في ثلاث:

- {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ}.
- {وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ}.
- واعتقد يقينا أنه {وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا}، ومشكلتنا نحن في هذه الجُملة الأخيرة {وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا}، فنحتاج التيقن بها .

إذًا أولًا: أعرض عنهم، لا تخض في كلامهم- دون أن تترك معاملتهم؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- عامَل المنافقين- لكن من الداخل أعرض عن كُل كَلامهم؛ لأنك لو شَغَلْتَ نفسك بهم لا تستطيع أن تعبد، ولا أن تدعو، ولا أن تصلّي، ولا تعرف طريقك المستقيم، وهذا من أصعب الأمور: أن يأتيك البلاء مِن شخص مَدفون لا تَعرِف مَن هو، أو قد تعرفه لكنه ليس ظاهرًا وليس باطنًا، وتصبح بين أن تظلم نفسك، أو تظلم الآخرين؛ فلا تشغل نفسك بهذه الدوامة كلها؛ لأنك ما خُلِقت لأجل هذا، إنما أتاك هذا امتحانًا لك، فلو آمنت أن هذا امتحان؛ افعل ثلاثة أفعال، فِعلَين بقلبك، وفِعلًا بِبَدَنك:

-أعرض عنهم، ولا تدخل نفسك في نقاشات وكلام كثير؛ فهذا الكلام الكثير يدخل أطرافًا لا علاقة لها بالموضوع .(هذه فعل الإعراض)

-املأ قلبك توكلًا عليه، وهو يرد عنك، ويشغِلهم بِأَنفسهم، ويجعَل تَدبيرَهم تَدميرًا لهم، ويُنجيك منهم وإن فعلوا ما فعلوا . (وهذا فعل التوكل).

- ثم بعد ذلك إن تحرك في قلبك قلق ما؛ سَكِّنْ نَفسَك بأن وكيلك أهل أن يكتفى به؛ فهو نعم المولى ونعم النصير، وهو الذي من توكل عليه فهو حسبه !(وهذا فعل الاكتفاء به وكيلًا).

كل الصعوبة في أن نتوازن بين مفاهيم كثيرة، مثلًا: أتوازن بين توكُّلي على الله واكتفائي به وكيلا -هذا بالنسبة لي يعتبر غاية في الطمأنينة- وبين أني أنا ضعيف أصلًا ليس لدي القدرة والنَّفس أن أُنافح ولا أُدافع، وبين أن النَّاس يتهمونني بالضعف، وأحيانًا أنا مِن الداخل لا أريد أن أناقش ولا أتكلم.

٣. آية النساء:{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا} لو كانت لك أُمنية، عندك رغبة تودّ تحقيقها: سواء صلاح أبناء أو غيره، وما استطعت تحقيقها لنفسك، أو تراها في الأفق لكن تغتم خائفًا أن تفوت، أو ترى أمامها عوائق، ماذا يُقال لَك؟ أليس مُناك هذا مُلْكٌ لله؟! هل يأتي به أحد غير الله؟!

لا يأتي بمُناك إلا الله، وأنت تعلم أن له ما في السماوات وما في الأرض، إذًا اتخذه وكيلا، وَكِّله أن يأتي لك بِمُناك.

مثال: شخص يريد أن يترقّى في عمله، يشعر أن هذه الترقية في العمل أمنية يحبها ويتمناها، أنا لن أناقشه بأنَ هذه أمنية في الدنيا، إنما سأقول له: ما دام ظهرت لك أُمنية، إذًا كيف تُعاملها؟ لا تشغل نفسك ليلًا ونهارًا بأنهم سيقبلون فلانا لو تكلّم، وفلان أتى بشهادته وسيتفوّق على شهادتي! لا تفكّر هذه التفكيرات، إنما أُمنِيتك التي تريدها تَمَنَّها على الله، واتخذه وكيلًا يأتِك بها، وكفى به وكيلا.

تتخذه وكيلًا وأنت تعتقد أنك لو وكّلته لا يخذلك، وأنه لو لم يأتك مرادك الآن؛ فسيأتيك بعد حين، ويأتيك في أحسن وضع، بل ويأتيك أعظم منه لو رضيت به ربًّا، يقول السعدي رحمه الله في قوله تعالى: {ومن يتوكل على الله فهو حسبه}: "وإذا كان الأمر في كفالة الغني القوي العزيز الرحيم، فهو أقرب إلى العبد من كل شيء، ولكن ربما أن الحكمة الإلهية اقتضت تأخيره إلى الوقت المناسب له.." انتهى.

[1] النساء١٣٢

فكونك تتخذ الله وكيلا هذا معتمد على رضاك بالله ربًا، ومثال ذلك :

تمنيت تخصصًا في عِلم معيَّن، ولم يُقدَّر لك وذهبت إلى مكان آخر، بعدما اتخذت الله وكيلا وطلبت الله ورَجَوته وقلت: (أنت يا رب حسبي ونعم الوكيل، سأوكلك أمري، لن أشغل نفسي ولن أدمّر نفسيّتي). أتعلمون ما مشكلة الذي لم يتخذ الله وكيلا؟ ماذا يفعل في نفسه؟

يقوم بعمل تدمير لها من الدَّاخل، لأنه طوال الوقت يبقى في قلق، طوال الوقت يحسب حِسابات: (لو ذهب فلان قبل فلان، ولو دخل فلان قبل فلان، ولو لم يرضوا هذه الورقة، ولو أخرجوا قانونًا جديدًا)، وتأتيك الخيالات! فأنت مِن بداية الأمر ارحم نفسك وقل: (يا رب أنت حسبي ونعم الوكيل، إليك أفوّض أمري). وفِعْلُ التفويض بنفسه فيه صعوبة، يعني في اللحظة التي يأتيك فيها الأمر ماذا يجب عليك أن تفعل؟ تفوّض أمرك إلى الله.

لنفرض أنك الآن فوّضت وقلت: (حسبي الله ونعم الوكيل)، ولم تدخل الكلية التي تتمناها، وأتى محلّها بديل. البديل هذا هو اختيار الوكيل الذي هو أعلم منك، وأحكم منك، وأرحم بك، انظر لنفسك حين تُوَكِّل أحدًا وتقول له: (اذهب وخُذ قرارًا بدلًا عني، فأنا أثق في قرارك، وأثق في عِلمك، وأثق في حكمتك) كيف تكون مرتاحا بسبب ثقتك به؟

حين تريد أن توكّل مُحاميًا، هل تبحث عن أي محام؟ أم تبحث عن محامٍ ثقة؟ بل عن أفضل محامٍ في القانون! ثم تعطيه القضية وتنام قرير العين هانيها؛ لأن وكيلك أهل للثقة!

هذا حالك في توكيلك للبشر، فكيف بتوكيل العليم الحكيم الرحيم البر الكريم الذي لا يريد إلا خيرك؟!

لذلك حين تستخير الله ويختار لك لا تقل: (ماكنت أتمناه أفضل مِن الذي اختاره الله لي)؛ بل ولا يخطر ذلك منك على بال، فالرضا مهم في هذه الحال، ولهذا في آخر دعاء الاستخارة نسأل الله الرضا ونقول: واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به، إذ كيف يصح أن توكل من لست ترضى عن اختياره؟

ولما يأتينا اسم الوكيل سنجد أنه يستلزم صفات الجمال فهذا الاسم لو فهمته جيدًا ستقول: ما دام أني سألته ويجب علي أن أتخذه وكيلا، إذًا هو بَر، رحيم، كريم، ودود... إلى آخر هذه الصفات.

٤. آية النساء:{إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا } ما علاقة نفي الولد وإثبات المِلكِية بالوَكالة؟ لأنه {وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا}. نحن نتكلم عن التوحيد بأنه وحده الإله، وليس له ولد يُفوّض إليه الأمر أو يطلب منه، ولهُ وحده الملك. إذًا أنت عَلِمْت أنه وحده الإله، فما معنى الإله؟

الإله يعني المألوه الذي تتعلق به القلوب وتعظمه، ففي بداية آية الكرسي {اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ} وفي آخرها {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}، هو الإله العَلي الذي تتعلق به القلوب، والعظيم الذي تعظمه القلوب.

فإذا عَلِمْت أنه وحده يجب أن تتعلق به القلوب وتعظمه، وليس له الولد، وله وحده الملك، إذًا ما المطلوب منك؟ أن لا تتخذ غيره وكيلا.

هذه الآية أتت في سياق الكلام عن تَوحيده، فكما أنّك توحّده في الألوهية وتنفي عنه الولد وتوحّده في الملك؛ فوحّده في كفايتك بوكالته.

{وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا} يعني لا تتخذ غيره وكيلا، وَحّده باتخاذه وكيلًا، اكتف به وَكيلا؛ لأنه الوكيل، ولأن له مُلك السماوات والأرض، وليس له ولد.

كيف أكتفي بالله وكيلا؟

هُنا الصعوبة. نضرب مثالًا مِن الواقع: لو وكّلت محاميًا وأنت تعلم أنه محام بارع، وأخذت تتصل به كل يوم: (ماذا فعلتم؟ وأين وصلتم؟) هل سيقبل هذا منك؟ لا، لن يقبل، إنما سيقول لك: (أنت تثق بي أم لا تثق؟ وكّلتني أم لا؟) سيصدّك مباشرة؛ لأن تفتيشك وراءه دليل عدم ثقة فيه، ولو اكتشف أنك سألت غيره، سيعيد لك ملفك.

ولله المثل الأعلى. لما يُوكّل العبد ربه على الأمر يجب أن لا يتعامل معه بالقلق، لا تُعامل ربّك الذي وكّلته وطلبت منه أن يُدبّرك بأن تقلق مِن تدبيرِه، كيف يقع في قلبك القلق والذي تولى أمرك الحكيم، العليم، الكريم، الرحيم.. كيف؟!

لكن هذا الواقع في قلوبنا –نسأل الله أن يغفر لنا– فنحن نوكّل ربنا ونطلب منه ونقول: (أنت نعمَ الوكيل يا رب، ودَبِّر أمري ويسّر لي هذا الأمر)، وبعد ذلك لا نستطيع أن ننام، وكل لحظة تأتينا أفكار سوء : ماذا لو حصل كذا، وماذا لو حصل كذا؟!

[1] النساء:١٧١.

لابد أن نعرف أن هذا مِن الشيطان، فاستعذ بالله منه أولًا، ثم أعِد على نفسك (حسبي الله ونِعمَ الوكيل) وهذه الكلمة للأسف ليست مفهومة.

ما معنى (حسبي الله ونعمَ الوكيل)؟

يعني يكفيني الله، وكّلته وأنا على ثقة أنه يكفيني، سيدبّر شؤوني أحسن تَدبير.

فتّش همومك وعامِل الله بها باسمه الوكيل، وبعد أن توكّلهُ استح أن تعامله بالقلق، ألا تقول {وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا} و {حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}؟ هو نِعْمَ الوكيل، وأنت تعلم أنه حكيم، كريم، رحيم، ودود، يحب عباده وعباده يحبونه، تَعْلَم عنه هذا كله ثم يقع في قلبك قلق تجاه فعله؟! أو تنتظر شيئا سيئًا يأتيك غدًا؟!

قد يقال: (هذا الشيء ليس بإرادتي) لا بأس، لابد أولا أن تعلم أن هذا خطأ، وأن لا تسمح لنفسك به ما دمت قد وكّلت ربك، يعني اشعر أنك في حقّه أذنبت.

فالبشر يرفضون أن تُعامِلهم بالقلق، فكيف برب الأرباب الذي له ما في الأرض وما في السماوات؟!

حقيقةً هذا نوع مِن الاعتداء على الرَّب، فلما تعْلم أنه وكيلك، وتقول: (يا رب أنا فوّضت إليك الأمر، ادفع عني ودبّرني، واجعل هذه الليلة تمر بسلام، أو اجعل هذا الأمر يمر بسلام، وسدِّدني في تصرفاتي وكلامي) بعد أن تقول هذا الكلام وتقول: (أنت حسبي ونعمَ الوكيل)، تُعامِله بالقلق؟! هذا هو الكذب على النفس.

قد يُحَيط بك أشخاص مرضى القلوب، يرونك هادئًا فيتهمونك بالبرود، أو يرونك تنظم جدولًا لأعمالك تفاؤلًا بأن الله لن يخذلك فيما وكلته به؛ فيتهمونك بالتفاؤل، وعدم رؤية الواقع ومعطياته و.. وإلى آخر ما هنالك من كلام تفقد بسببه ثقتك بالله!

ويؤسفنا أنه مع طغيان المادّية أصبح هؤلاء هم الكثرة الغالبة الموجودة حولنا، فنتيجة عِلْمنا بأسماء الله وصفاته يصبح بيننا وبينهم انفصام في التفكير، نشعر أنهم في وادٍ ونحن في وادٍ، فأنا أتعامل مع هذا الموقف على أني وكّلت أمري لله –عز وجل– وأعلم أنه سَيُهيّئ لي الأسباب، فأتوسل إليه أن يُهيّئ لي الأسباب. ولا تتصوّر أن هذا لا يقابل الحركة، بل الذي يوكّل ربه يُفتَح لهُ من الأسباب ما يجعله يأتي بأدنى حَركة ويأتي له منها الرِّزق.

هناك إشكال قد يواجهنا وهو أننا نرى صنفين من الناس:

الأول: صنف ناجح بلا توكل: لا يتكلم عن التوكل ولا يعرفه، ومع ذلك يخطط وينجح!

حين يرحمك الله سبحانه يكرمك بالعلم عنه، ويؤدّبك حين تبتعد عما علمك، أما هؤلاء القوم فُيعامِلهم الله بحلمهِ، يخطّطون؛ فَيوجِد لهم تخطيطهم، يُرتبون؛ فتنجح ترتيباتهم، فالمفروض أن يزدادوا تعلقًا بربهم حمدًا وشكرا، ولكن الحاصل أنهم يغترون: {يا أيها الإنسان مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ} يزدادون انتفاخًا بأنفسهم!

ينتفخون ويُعامِلهم الله بحلمه، ثم يخذلهم في مواقف؛ فلا يتنبهون؛ بل يقول لك أحدهم: (أنا خسرت هذه الصفقة لأني لم أعطها كل تفكيري) فتجده لازال دائرًا حول نفسه، إلى أن تأتيه قاصمة وينتهي موضوعه، فيأتي يوم القيامة يُسأل {مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ} يعني لما عاملك الله بكرمه وأعطاك وأعطاك ما الذي غرَّك؟ لماذا اغتررت؟!

الثاني: صنف يثبطك ويبث القلق في قلبك: يقول لك: (بالتأكيد أنت متعب نفسيًا؛ فهذا الأمر مقلق)، وإن لم تكن كذلك ستثْبُت عليك التُّهمة!

مع أنّ الذين يعلمون عن الله هم أشفَى النَّاس قلوبًا، لأنهم يتعاملون مع كتابهِ الذي هو شفاء لِما في الصُّدور.

س: أنا استخرت في الزواج واختار الله لي أن أتزوج، ثم فشل زواجي، فكيف لم يزو الله عني هذا الشر وقد استخرته؟

ج: هذه المسألة ينظر لها مِن زاويتين:

الزاوية الأولى: أنك رُبَّما عَزَمت وأصررت، ثم استخرت مِن باب تكميل الصورة فقط، أي أنك قد قررت وأنهيت الأمر، واستخرت فقط مجرد تحصيل حاصل.

الزاوية الثانية: أو أنك كنت حاضر القلب في الاستخارة غير مُقرّرٍ إلا بعد أن تستخير، فهنا يكون هذا لك امتحانًا.

مثال: الشريعة تحكم على الذي طلّق زوجته ثلاثًا أنها لا تحل له من بعد حتى تتزوج غيره ثم تُطلق منه –طبعًا على المنهج الشرعي– لماذا تأمر الشريعة بمثل هذا؟ لأنها ربما لم تكن لتحتمل زوجها الأول وصفاته إلا لما تتزوج غيرهُ وتتأدب، فتعود للأول وتَعمُر حياتها، وهو أيضًا ربما لا يُؤدّبهُ إلا أن يَعْلَم أن زوجته قادرة على أن تتزوج غيره وتذهب.

[1] الانفطار: ٦.

فهناك أناس لا يُؤدّبهم ولا يعدَّل نفسيتهم إلا دخولهم في تجربة، فهذا استخار الله وطلب منه؛ فأدخله الله هذه التجربة تأديبًا له، تعديلًا لشيء في نفسهِ، وربما رفعةً لدرجتهِ، فهذه مِن الحِكَم الأخرى.

٥. آية الأنعام:{ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}[١] اعبده وانشغل بعبادته، ثم ماذا تفعل في كل الذي يهمّك؟ وَكّل الله عليه، فأنت مشغول بتحصيل مصالحك، ولا نقصد انشغال بدنك؛ فانشغال البدن سهل تنتهي منه ثم ترتاح؛ لكن المشكلة في انشغال قلبك كل يوم بالتخطيط للغد!

قد قيل لك {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} أي لا تعتن إلا بإصلاح دارك الآخرة، ماذا إذًا عن الدنيا التي تعيش بها؟! اتخذه وكيلا، سيرزقك وييسر لك، ويأتيك من الموافقات العجيبة في الأسباب مالا تستطيع إدراكه.

تسمع كثيرًا عن دورات تكلّمك عن النجاح وماذا تفعل من أجل أن تنجح، ويقولون لك بأنك لو فعلت كذا ستصبح الحياة سهلة، وأنا الآن سأقول لك وَصْفَة تُسَهِّل عليك الحياة أكثر بكثير من كل ما يقولون:

اذهب لِمَن يملك كل شيء،- وهو الذي طلب منك أن تتخذه وكيلا – وتوسل إليه أن يرشدك من أين تأتي بمرادك؛ فينفق عليك ويُعطيك ويحدد لك أين تذهب، واطمئن إليه فهو الذي يهيّئ لك أسباب مرادك، ويعطيك الحول والقوة لتذهب وتأتي بمرادك، وينفعك لما تَصِل إلى مُرادك، ففي الحديث: ((إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، قَالَ: يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدِيتَ، وَكُفِيتَ، وَوُقِيتَ، فَتَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ؟))[٢].

ما معنى قولك (لا حول ولا قوة إلا بالله) لما تخرج من المنزل؟

يعني أنا أعترف يا رب بأنه ليس لي حول ولا قوة على تحصيل مصلحتي إلا بِك.

فلا أيسر مِن أن تعيش على الله معتمدًا، ومنه منتظرًا أن يُريك الأسباب وييسّرها لك فتأخذها.

---

[١] الأنعام١٠٢.

[٢] رواه أبو داود في سننه وقال الألباني صحيح.

وإليك هذا المثال:

لنفترض أن شابة دخلت على زوج، وهي تجهل كل شيء عنه : ما مفاتيحه؟ ما الذي يرضيه؟ ما الذي يوصلني إلى قلبه؟!

هذا سرّ، فمهما كنت تفهم، لا يمكن أن تأتي بمفتاح قلبه، لكن الذي خلقه هو الذي {لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ} فانكسِر عنده تعالى {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} فهو الوكيل الذي يُسَدّدَك أن تتصرف مع هؤلاء كما ينبغي فتُفتح قلوبهم لك.

أليس هو الفَتَّاح الذي يَفتَح المغاليق؟!

فإذا كان همّك قلوب مَن حولك؛ فهو الفتاح الذي يفتح مغاليق القلوب!

وإذا كان همَّك الرزق؛ فهو الفتاح الذي يفتح مغاليق الأرزاق ومغاليق الأسباب!

وإذا كان همك العلم؛ فهو الفتاح الذي يفتح مغاليق الفِكر!

← فتوكل على الحَيّ الذي لا يموت، وقُم بوظيفتك {فَاعْبُدُوهُ}

ثم فوق هذا كله اعلم أن توكلك عليه يزيد مكانك عنده، فهو عبادة من العبادات، وسبب لكفارة ذنوبك، ورفع درجاتك، وذِكر الملائكة لك.

فأنت الآن لن تستفيد في الدُّنيا فقط؛ بل ستسير في هذا الطريق فيما يُرضي الله عنك، فالله -عز وجل- لم يُكلّفك مالا تستطيع، بل فتح عليك أبواب الارتفاع عنده بصورة لا تتصورها، فحتى تَحصِيلك لِشؤون دُنياك أَصبح في ميزان حَسناتك ما دمت اتَّخذتَه وكيلا، فنستعمل اسم الوكيل في كل ما أَهَمَّنا، وننشغل بالتعلق به أن يفتح لنا مغاليق القلوب.

ومن أجل ذلك نقول: أكثر ما يُتعِب الناس أن يستغيث سَجين بِسَجين، وغَريق بِغَريق، ومحبوس بمَحبوس، فكل الناس مِثْلَك بالضبط: محبوسون، سجناء، غرقى! يعني مثلا هذه زوجة يقول لها زوجها: (أنا أنتظر السعادة عندك) فتقول: (أنا التي أنتظر السعادة عندك) وكل شخص ينتظر السعادة عند الثاني، فهل أنا أستطيع أن أعطيه أم هو الذي سيعطيني؟!

الله –عز وجل– وكيلنا، هو الذي يفتح لي في قَلبِه ما يجعلني سببًا لسعادتهِ، والعكس.

(حسبنا الله ونعم الوكيل) معناها أنك توكل أمرك إلى الله، فانفعل بها بوجدانك.

لماذا أحتاج أن أجعل لي وكيلا؟

لِأن وَصفي الضعف {وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا}[1] فلابد أن تُؤمِن بأن وَصفك الضَّعف، ولا تغُرَّك الصورة التي يعتبرها الناس مثالية، الناس يعتبرون الصورة المثالية هي أنك يجب أن تكون قويًا، لكنك وُصِفت بأنّ أصل حالك الضعف، حتى على الطاعة ضعيف، فإذا كان وصفك الضعف وتريد أن تَقوَى وتُحقق مُرادك، ماذا يجب عليك أن تفعل؟

تستعين بالقَوِي، من أجل ذلك لَمَّا أُمِرت بالاستقامة في {إِيَّاكَ نَعبد}، لم تُؤمر بأن تستعمل قوتك، بل هذه لا تأتي وحدها إنما تأتي بـ {إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} فلابد أن تتصور حقيقة نفسك: وهبك الله مواهب وطبائع في نفسك، وهبك صفات خاصة، لكن لا تستطيع الانتفاع بها إلا بِعَونٍ منه.

والحديث صريح ((يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ))[2] . فهذه هي الصورة الحقيقيّة التي يجب أن تنكشف لك، لكننا نرى قومًا لا يستطعمون الله –يعني لا يطلبون منه الطعام– وعندهم طعام؟! نقول: {مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ} يعني أنّ الله مِن أسمائه الحليم، الكريم، الرحمن، فهو يُعامِل عباده برحمته وبكرمه وبلطفه إلى أن ينتهي الاختبار، ومتى ينتهي الاختبار؟ لحظة قبض الرُّوح!

فعلى طول فترة عيشك في الدنيا أنت تُعطَى مِن أَجل أن تَرجِع إلى بابه، تُعطى مِن أجل أن تُصلِح حياتك، من أجل أن لا تأتي اللحظة التي تقول فيها {يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي}[3] فأنت تعيش بعون مِن الله، في رحمة الله، حتى مشاعرك وأحاسيسك هذه ما هي إلا مِن رحمة الله، انظر كيف لان النبي –صلى الله عليه وسلم– للنَّاس؟

---

[1] النساء:٢٨.

[2] رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، بَابُ تَحْرِيمِ الظُّلْمِ، ٢٥٧٧.

[3] الفجر:٢٤.

يقول الله –عز وجل–: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ}[1] يعني مِن رحمة الله، هكذا فانظر إلى صفاتك؛ فإن وجدت نفسك لينًا مع الناس؛ فاعلم أن هذا اللين هبة من الله؛ لأنه هو معطي الصفات الشخصية، وانظر لنفسك كيف تتصرف في بعض المواقف بعكس طباعك الشخصية؛ لتستدل من ذلك على أن طبيعتك التي خلقت عليها قد تأتيها لحظات تنقلب عليك رأسًا على عقب؛ فلا تتصور أن طبيعتك الشخصية ملكك؛ بل الله هو الذي أعطى، وهو الذي ييسر لك استعمالها فيما ينفعك.

قد تقول الآن: (ما دام الأمر هكذا، فأنا ماذا أفعل في الحياة)؟

دورك في الحياة هو الاستعانة، وهُنا اختبارك: بأن تستعين وتجعل الله لك وكيلًا، هذا هو المطلوب منك وهذا هو الاختبار، فهناك أناس ما اتخذوه وكيلا، يعتقِدون أنهم يُصَرِّفون أَنفسهم، فَصَرَّفهُم الله ودَبّرهم– فهم في الحقيقة لم يُدبّروا أنفسهم– لكنهم عاشوا الحياة بطولها على أبصارهم غشاوة، متصورين أنهم هُم الذين يدَبِّرون أنفسهم، و هناك أناس كشف ربي عنهم هذه الغُمَّة {أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا}[2] فهذا الذي في الظلمات دائمًا يَصف نفسه دائما بالذكاء والفهم، والذي أراه الله النور يفهم أنه لولا تدارك الله له بالرحمة واللطف؛ لما انكشف له الخبيث من الطيب.

إذًا اسم (الوكيل) من أسماء الله التي نحتاجها بعدد حاجاتنا، فالله –عز وجل– لما أوجدك في الحياةِ؛ أنشأ لك الحاجات من أجل أن تنشَأ مِنك التَّعلقات والتَّوسلات به، وأنت طوال الوقت تحتاج أن تأكل وتشرب وتنام، وتحتاج أن تنجح في تربية أولادك، وتحتاج وتحتاج وما أكثر حاجاتك، وما أكثر فقرك إلى ربك، وما أكثر ما تخسر حين تجهل أن الله ينشئ لك هذه الحاجات مِن أجل أن يبقى حبل تعلقك به موصولا، فكم أكرمك الله بهذه الصلة يا أيها الإنسان؟!

ما الذي غشى على عينيك؛ فأبعدك عن هذه الصلة وحرمك من هذه الكرامة؟! أهي الأسباب؟!

ألا فلتعلم أن الأسباب خلقه وملكه، وما خلقها إلا اختبارًا لك؛ بل هي أعظم اختبار لك في الحياة: يختبرك الله بالأسباب ليعلم هل تراه من ورائها، أم تحط ثقل نظرك –المتقاعس عن رؤية الحقيقة– على الأسباب؟! وما ثم وراء هذه النظرة إلا الذل للناس والشقاء!

---

[1] آل عمران١٥٩

[2] الأنعام١٢٢

ولنضرب مثالًا على ذلك: لك أوراق في مكتب فلان، وفلان هذا قاسٍ لا يتعامل مع الناس كما ينبغي، فتفكر هل توسط بينك وبينه سكرتيره، أو من؟

في المقابل هناك تفكير أرقى وأسمى وأليق بكرامتك كإنسان، وهو أن تطلب رب الأرباب الذي لم يجعل لك حاجة عند غيره من خلقه !

وانظر الآن للمقارنة التي تكون في القلب:

أولًا: مَن الذي يَخطُر على بَالَك أَوَّل مَرَّة؟ يعني الآن عَرَفْت أنّ أوراقك في مكتب فلان المعروف بصعوبة الوصول إليه، فمَنْ الذي يَمر على خاطِرَك مُباشرة حتى يأتي لك بمرادك؟ على حسب النفسيات وعلى حسب التَّعلقات، فهناك مَن يأتي في بَاله السكرتير مباشرة، أو فلان الواسطة الذي يعرفه، يُمَرّر الواسطة في خاطره ويقول: (أنا أتذكر بأن لي قرابة عند فلان، وإن شاء الله لا يكون هذا الشخص مسافرا).

وهناك مَن يفزع قلبه إلى الله مباشرة، فهذا أول اختلاف.

ثانيا: بعدما فزع قلبك إلى الله –بعد ما تذكرت الله عز وجل– مـــاذا تظن به؟

كلامنا الآن في اسم الوكيل دائر حول (ماذا تظن به؟) لأن مِن أعظم الذنوب التي يقترفها العبد وهو لم يتحرك من مكانهِ ذنب سوء الظن بالله، تُوَكِّلهُ على أمرك ثم لا تثق بهِ أنه يَعطيك، أو تَظُن فيه أنه يخذلك! هذا مِن أعظم الذنوب، وهو ذنب سوء الظن بالله.

لنقرأ من كلام الله –عز وجل– ما يبيّن لنا ما يجب أن يقع في قلوبنا من ظن بالله حين تنشأ الحاجات:

يقول تعالى: {وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا}[1] لاحظوا بأن هذا ثالث موطن يَتَبَيَّن لنا فيه ماذا نفعل حين يريد أحد ما إيذاءنا ظاهرًا كان أو باطنًا.

[1] الأحزاب٤٨

هذه الآية جمعت بين الكافرين والمنافقين، وقد مَرّ معنا سابقًا آيتان: واحدة كانت في الكافرين، وأخرى كانت في المنافقين، لكن هذه الآية جمعت بين الكافر الظَّاهر العداوة، وبين المنافق الذي يكون معك ويكيد لك.

لماذا تتوكل على الله وتعتقد أنه كافيك؟ لأن مِن وَصْفِهِ أنه وكيل، أنه يتوكل شؤون عباده، فإذا كان لك عدو في الظاهر أو عدو في الباطن، ماذا يُقال لك، وبتكرار؟!

لا تَقلق، انتبه، فأعدى أعداء حسن الظن بالله هو القلق، مرض القلق إشارة إلى عدم حُسن الظَّن بالله، لا تقنع نفسك أن القلق طبيعي، لابد أن تعلموا بأن القلق ظاهرة مرضية، مرض نفسي، لا بد أن تعلموا أنه ليس سبب قلقنا هو هَول ما نقدِم عليه، بل سبب قلقنا هو ضَعف ثِقتنا بالوكيل، ولتنظروا إلى ثقة الأنبياء بالله، وإلى نتائج هذه الثقة:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: "حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالُوا: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا، وَقَالُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ" فمهما كانت مصيبتك هل تساوي الإلقاء في النار؟! خُذ مما فَتَح الله به على الأنبياء ما يُنَاسِبَك: هذا نبي وابتُلي بأن يُلقى في النار، وأنت لم يصل بلاؤك لأن تُلقى في النار؛ بل عندك جزء مِن البلاء فقط، فإذا كان إبراهيم –عليه السلام– سيُلقى في النار فقال (حسبي الله ونعم الوكيل) فَنَجَّاه الله؛ فأين عينك عن إنجاء الله له؟!

وننتبه هنا إلى أمر مهم وهو أن خبرتنا السابقة ربما تكون هي بلاؤنا، وذلك من جهتين:

١–خبرة تجعلك تثق بنفسك ولا تتوكل على الله، فتقول هذا أمر أفعله دائما، وأنا ماهر فيه، وشرح هذا كما أسلفت سابقا.

٢–وهناك خبرة سَيئَة تجعلك تقلق مِن فعل الله، فقد تقول مثلا: (أنا دخلت سابقًا في موقف مثل هذا وخرجت منه خاسرا، أوذيت، تألمت، تطلقت). نقول: خبرتُك هذه هي بَلاؤك هنا، لأن المطلوب منك وأنت قادم على تجربة مُكررة أن تزيد ثقتك بالله، لأن العدو (الشيطان) يضع أمام ناظريك فَشَلك القديم حين تتوكل على الله، ويُشعرك بأنك حتى لو اتخذت الله وكيلا فلابد أن تتعلم من تجاربك السابقة! وقد يأتي لك بما يناسب ويؤيد قوله من الأحاديث كقوله صلى الله عليه وسلم:

[1] رواه البخاري في صحيحه، كِتَابُ تَفْسِيرِ القُرْآنِ، بَابُ {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ} آل عمران: ١٧٣ الآيَةَ، ٤٥٦٣.

((لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ)) . وهذا الحديث ليس فَهمه[1] كما يظن غالب الناس؛ بل الفهم الصحيح لمعناه أنه إذا كان مؤمنًا قَوي الإيمان فلا يقع في الذنب مرتين بعد أن شعر بألمِهِ، لكن إذا ضَعف إيمانه يَعيد الكَرَّة مرة أخرى.

إذًا لما تَدخل في تجربة وتخرج بنتائج سلبية منها وأنت مُضَّطر لدخول نفس التجربة مرة أخرى، فالحاصل أنه لا يبقى في ذهنك إلا الذَّاكرة السلبية.

مثلا الولادة، هذه امرأة ولدت أول مرة وتألمت وتعبت وتعذبت، فتأتي المرة الثانية ونقول لها: (ادعي الله أن ييسر لك)، فتدعو الله وهي تموت قلقًا من الدَّاخل! لا تستطيع الشعور بأنها لو دَعَت سَتتغيَّر الصورة، (غير قادرة أن تَثق بأنه يمكن أن تأتي مَرّة لا تكون بنفس صورة المرَّة الماضية).

لابد أن تَتصور بأن ما حَصل لها المرة الماضية ليس شرطًا أن يتكرر، فأنت لما تَصبغ نفسك بأنه لابد أن يتكرر، تُبتلى فعلا؛ فيتكرر! فقل: (يا رب أنا جَرَّبت نفسي، ورأيت الآلام، يا رب أنت وكيلي، أنت حسبي ونعمَ الوكيل، دَبّرني، صَرّفني، يَسّر لي). فلمَّا تُقْدِم على آلام، تُقْدِم على مُهِمّات، تُقْدِم على أشياء صعبة، ويكون في ذاكرتك لهذا الشيء كراهية أو ألم أو ضعف، لا تُعامِل القادم بالماضي، لأن مُعاملَتَك القادم بالماضي وأنت اتخذت الله وكيلا، فيهِ سوء ظن بالله. فلمَّا يبتليك الله –عز وجل– في المرة الأولى وتفشل، وأنت مضطر لأن تدخل نفس التجربة مرة ثانية، راجع ما الذي أَضعَفَك في المرَّة الأولى؟ ما هو الشيء الذي كان سببًا في ضَعفك وخُذلانك؟ فإذا شَهِدْت على نفسك أن المرة الأولى كانت بسبب ضَعف في الإيمان، ماذا تفعل في المرة الثانية؟ قَوِّ إيمانك، اجعل الله لك وكيلا.

س: أحيانًا يكون قلقي ليس مِن الله بل مِن ذنوبي وأن الله سيعاقبني بسبب ذنوبي؟

ج: أولًا، معلومة أن الذنوب لها أثر على الحياة معلومة صحيحة مائة في المائة، فالذنوب لابد أن تكون مؤثرة على الحياة، لكن وكيلك لَمَّا تكون إليه مُضطَّرًا، وبين يديه منكسرًا، لا يمكن أن يَخذِلَك في هذه اللحظة، وإذا كان الكافر لو دعا دُعاء المضطَّر استجاب الله له وهو كافر، فكيف بمن اتخذ الله وكيلا هل سيخذله لذنوبه؟!

ثم إذا كنت تعلم أن السبب ذنوبك؛ فالزم الاستغفار، وتوكل عليه.

[1] متفق عليه.

لو قيل: أنا لست قلقًا مِن ربي، أنا قلق لأني لا أستحق أن يعطيني الله.

نقول: لا تسئ الظن بالله –عز وجل– فهذا نوعُ إساءة ظنٍ بالله، لأنك لما تضطَّر وتلجأ لا يمكن أن يخذلك الله!

لو سألتك عَن الكريم في أَخلاق البَشر، شخص كريم، وأنت بَطِرت عليه في لحظة وقلت له: (يا أخي كل مرة تأتي لنا بنفس الطعام؟). وبعد ذلك أتيت يومًا جائعًا، وطرقت بابه وهو كريم، وقلت له: (أعطني لآكل). هل سيقول لك: أنت في المرة الماضية قلت لي كذا وكذا؟! إذا كان لئيمًا وأنت محتاج سَيَرُدَّك، أما إذا كان كريمًا وأنت مضطَّر فلن يَرَدُّك، قد يعاتبك في الرَّخاء، وأنت غير محتاج، أما في وقت الضيق فلا.

مِن أخلاق الكرماء: أنهم في لحظة الحاجة لا يردّون منَ يَطرق بابهم؛ فهل تعلم أكرم مِن الله عز وجل؟! لسنا نعلم أكرم منه سبحانه، فلا تتصور أنك لما تتخذه وكيلا، وتقف بين يديه منكسرًا، أنه سيخذلك، كيف وهو ربك؟! سيتركك لِمَنْ؟! حتى لو كان بينك وبينه ذنوب، فأنت محتاج ومضطر، وليس لك غيره، فلابد أن تلجأ له، ليس عِندك حَل آخر، وإلا ستذهب لمن؟!

فإذا شعرت أن الله –عز وجل– لن يُحقق لك مُرادك رغم اضطرارك؛ فهذا نوع سوء ظن بالله، لأن اللجوء إليه والانكسار بين يديه أحد أسباب كفارة الذنوب، فالانكسار، واللجوء، والدعاء، والطَّلب بنفسه عبادة، ولهذا لا تطلب طلب المستغني، يعني طلب الذي يقول (أعطني هذا وبعد ذلك نتفاهم)، لا، بل اطلب طلب المنكسر الذليل المعترف بنعم الله عليه، والزم الاستغفار إن كنت ترى أن ذنوبك حائلةً بَينَك وبينَ عَطاء الله.

ففي النهاية القَلق ليس هو الحَّل، إنما القلق مِن الشيطان، لابد أن تتصوروا {لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا} يجب أن تفهموا بأن خطة الأحزان هي خطة عدائية تجري في دمائنا!

ما وصف هذه الخطة؟

[1] المجادلة ١٠

كلما أقبلنا على أمر يجعلنا الشيطان لا نرى إلا جانبه السلبي، خصوصًا ونحن نكبر في السِّن، يعني كلما كبرنا وزادت خبراتنا الماضية، إذا لم نكن مليئين باعتقاد كمال صفات الرب، فإن تجاربنا هذه ستزيدنا قلقًا، وانظر للصغير كيف هو جَريء على المواقف والأحداث، أما الكبير فأكثر تَرَيّثًا، وليس شرطًا أن يكون هذا مِن عقل، قد يكون أكثر تريثًا لأن شاشته سوداء! كل التجارب عنده سيِّئة، وأحيانا تجده حين ينوي السلام على أحد يقول في نفسه: (لو سلّمت على فلان سيظن أني محتاج له!) لماذا هذا التفكير؟ لأنه قد سلم سابقا فقيل له: (نعم ماذا تريد؟) فوضع هذه التجربة في ذِهنه.

يأتي مثلًا يريد أن يبتسم لأحد؛ فيخاف أن يقال له : (ما وراءك؟ هذه الابتسامة لها معنى)، فيترك هذا الخير؛ بسبب شاشته المغبشة من تجاربه السوداء التي لا يستحضر غيرها !

مِن أجل ذلك لما نَكبَر مِن دُون توحيد وتعلّق بالله، تزداد حساسيتنا المهْلِكة –وليست النافعة– لأن الحساسية النافعة هي التي بينك وبين الله، فتشعر مثلا أنك أذنبت، وأنك قصرت في الشكر، تشعر أن الله –عز وجل– أَنعَم عليك، فكل حساسيتك بعلاقتك مع الله: سواء ذنب، خطيئة، نِعمة، لكن الحَساسية لما تَنقلب بَينك وبين الناس وكلما ازددت عمرا ازددت حساسية، فهذا بسبب عدم وجود حُسن الظن بالله، والنساء أكثر عُرضة لهذا الأمر، فتأتي مسائل الاكتئاب وغيرها، وهذا بسبب أنك سِرْتَ في الحياة وأنت لا تَعلم عن الله، وتَراكمت التَّجارب السيئة، بل حتى أحيانًا لايكون لديك تفسير يفسر لك لماذا يبتسم لك الناس وأنت لا تبتسم لهم؟! لماذا يكلمك الناس بالطيب من القول وأنت لا ترد عليهم؟! لماذا أصبحت بكل هذا العنف؟!

أصبحت لا تملك تفسيرا لهذا كله بسبب تراكم التَّجارب السيئة التي لم يصاحبها عِلم عن الله، و عن أن كل شيء رزق، وأنه حتى الكلام الطيب الذي تسمعه هذا نوع من أنواع الأرزاق، وهذا طبعًا الإيمان العظيم الذي يُحَوِّل الإنسان فلا يَطلُب إلا مِن الرَّزاق ولا يَنتَظِر إلا مِنه، لا يَحمد النَّاس على عطاء الله، ولا يذمّهم على ما لم يؤتِهِ الله، أليس هذا ما جاء في الحديث: ((إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسُخْطِ اللهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللهِ، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يَؤْتِكَ اللهُ، إِنَّ رِزْقَ اللهِ لَا يَجُرُّهُ إِلَيْكَ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كُرْهُ كَارِهٍ)) .

[1] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم، غَرِيبٌ مِنْ حَدِيثِ عَمْرٍو، تَفَرَّدَ بِهِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مَرْوَانَ، عَنْ أَبِيهِ.

لدي ثلاث حالات أحتاج فيها إلى التوكيل والتفويض:

الحالة الأولى:

(حالة الوَهَم)، حالة تَلاعُب الشَّيطان بالإنسان، وتَقطيعه لأمنه النفسي، فالشيطان يأتي يُقَطّع حالات الأمن النفسي التي تعيشها، لأنك وأنت آمِن نفسيًا، لن يكون عندك سوء ظن بالله، فلا يرضى لك عدوك أن تعيش بلا ذنوب؛ فماذا يفعل بك؟ يُلقي في نَفسك خَوفًا مِن المِخاوف التي تَدور حولك، فتَنقلب نفسيتك إلى سوء الظن، وتنساق وراءه بالوساوس:

يمكن أن يحصل لي كذا، قد يفعل فلان بي كذا. هذه مواقف حقيقية تحصل: أحيانا يسألك شخص معك في درس عن سكنك، وفي نيته أن يوصلك معه؛ فيأتيك من المخاوف ما يأتيك: لماذا يسألني أين أسكن؟ ماذا يريد أن يعرف عني؟، إلى أن يأتي المرض النفسي الذي يُسمّى بـ "نظرية المؤامرة"، يعني: يصل الإنسان لِمشاعر بأن كل الناس حوله يتآمرون به، وهذه مَشاعر وأمراض موجودة، والناس لا يشعرون أنها أمراض!

تنام في الليل وتتذكّر أنّ فلانًا يريد أن يُقَدِّم فيك شكوى، أو يريد بك سوءا، فتبقى طوال الليل قَلِقًا تنتظر الصباح مِن أجل أن ترى ماذا فعل، ولقد كان يكفيك مؤونة هذا التفكير وهذا العذاب علمك أنك تحتاج في لحظة تذكرك لهذا المخيف، أو هذا الكَدر، أو هذا الشَّخص الذي هو بمثابة البلاء عليك، إلى أمرين معًا:

١. إلى سرعة الفَزع إلى الله أن يرد الشر عنك، وتذكير نفسك أن الله مالِك الملك بيده الخير وهو على كل شيء قدير.
٢. قوة الاستعاذة بالله من الشيطان؛ لأنه لا يُلقي في قلبك هذهِ المخاوف إلا الشيطان.

أنا أتكلم عن الوضع الذي تكون فيه هادئًا، وصفحتك صافية، وفجأة يأتي الشيطان ليجري الحزن فيك؛ فيلقي في قلبك الخوف مِن فلان الذي يُدبّر كذا، وفلان الذي يكرهك سيفعل كذا، وأحيانًا تأتيك خيوط بعيدة عن بعض، ثم يأتي الشيطان فيُضَفِّرها لك، ويضبط الصورة حتى لكأنها أمامك، أو كأنها خبر في جريدة، وتجد نفسك تفزع وأنت في مكانك، وبعد ذلك ترى أن هذه كلها خيوط عنكبوت، وأنه لا شيء مِن هذا حصل، ثم لو فرضنا جدلًا أن هذا الأمر حقيقة، فما الذي ينجيك منه ؟ تفويضك إلى الله.

كيف تعرف أن هذا الخاطر فيه إساءة ظن بالله؟

حين يشعِرَك الشيطان بالخوف مِن المجهول، أو مِن المعلوم الذي ليس له حقيقة:

– مثال الخوف من الجهول: أن تفكر ماذا سيحصل لأولادي غدا؟ ماذا ستفعل زوجاتهم بي غدا؟! وربما أولادي لم يبلغوا الحلم بعد أثناء هذه الهواجس!

ومثال هذا من يكتب مقالة طويلة عما سيحصل في الاقتصاد العالمي في عام ٢١٠٠، وأولادنا في أي الدول سيعملون، مع العلم أنه في ذاك العام سيكون في قبره، ولكنه لم يجد ما يتكلم فيه إلا وحي الشيطان؛ فتكلم!

المستقبَل بيد الله، فتوسّلوا إليه ينزل البركات، لكن القوم لِجَهلِهم بربهم تعلقوا بأنفسهم وبأفعالهم.

– أو ربط للمعلوم ربطًا وهميًا؛ فتكون في دائرة مِن سوء الظن تشعرك أنه لا يأتي مِن الله إلا سوء، وهذه انعكاسة لِتَجارب الشخص الماضية:

في تجاربك الماضية فَتِّش في نَفسك، فتش أين كان قلبك؟ وأين علمك عن الله؟ ولماذا تقرأ النقاط التي تَراها أنت سيئة؟

لما يَنضُج الإنسان ومعه توحيد يقول: {رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ} انظر للفارق الشاسع: [١]

شخص يرى أنه لم يأته مما مضى كله إلا الخير، وأنّ الله عامله فيه بحلمِه، وستر عليه، كان لاهيا وأخذته الدنيا ولم يأخذه الله؛ بل أمهله حتى علمه وفهمه عنه، وحتى جاءته لحظة توبة وانكسار!

كم مِن المرات ذهبنا للحج ولا نعرف ما قلنا فيه، لكن ربي عامَلَنَا بحلمه؛ فحججنا واعتمرنا ونحن نفهم ما نقول، وكم صلينا ونحن لا ندري ما الصلاة، وهي أثقل ما تكون علينا، وأمهلنا الله فصلينا ونحن نفهم ما نقول، أليس هذا كُله نِعَمٌ مِن الله –عز وجل–؟ لماذا إذًا النَّظرة السيئة؟ إنما هذا مِن فِعْل الشيطان.

[١] النمل١٩

قد يقول قائل: (لكني قلت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وقلت الأذكار). نقول: صحيح، قولك للأذكار مِن أهم العوامل، لكن هذا العامل لابد أن تفهم جيدًا بأنه مِثْل السَّيف، والسَّيف بضاربِهِ، يعني ماذا تحتاج؟ أن تملأ نفسك مِن المعاني، فهناك فرق كبير لما تقول (حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) سبع مرات وأنت لا تدري ماذا تقول، وبين أن تقولها وأنت تشعر حقيقةً أنك مُوَكّل أمرك لله. إذًا أنا أحتاج أن أتعامل مع اسم الله الوكيل وأفوّض أمري له لما يَنزغني الشيطان نزغًا لإساءة الظن.

الحالة الثانية:

الموقف الثاني الذي أحتاج فيه لتفويض الأمر لله لما أُقْدِم على ما أخاف، يعني شيء تُقْدِم عليه وأنت خائف منه، والخوف هذا له أسباب كثيرة: قد يكون لأنها تجربة جديدة – أناس لا تعرفهم مثلا–، أو عندي تجربة سابقة مخيفة وسأدخل مثلها، فأكون بِنَفس النَّفسية الأولى، فلا تفعل هذا الفِعْل، إنما اعتبر أنّ هذه تجربة جديدة تمامًا ليس لها علاقة بالأَولى.

لما تدخل إلى تجربة جديدة مثل التَّجربة السلبية السابقة، في تفكير الناس المنطقي يقال لك: انظر للعيوب التي كانت فيك وتَفاداها. فأنت مثلًا الآن مررت بأربع مرات من التجارب، المرة الثانية تفاديت خطأً ارتكبتهُ في المرة الأولى، ومع ذلك فشلت التجربة، وفي المرة الثالثة تفاديت خطأين حصلا في التجربة الثانية والأولى، لكن ظهرت لك مشكلة ثالثة غير المشكَلتين الأوليتين، يعني أنا جربت أعتمد على نفسي وجربت أفعل لنفسي خريطة سَلبِيات وإيجابيات، وكل مرة أدخل فيها يفاجئني أمر لم يكن في الحسبان، ولم يكن ثغرة في المرَّة الماضية!! ماذا أفعل إذًا؟

هذا يجعلك لما تُقدِم على شيء أنت خائف منه، تنزع مِن نفسك الثِّقة بها، يعني لا تجعل محورك في هذه التجربة القادمة أنك ستتفادى الأخطاء التي مَضت ومِن ثمَ ستنجح، لأنه قد يكون تفاديك للأخطاء السابقة هو بنفسه يشكل خطأ في هذه المرة، وأحسن مثال على ذلك الزواج:

مثلًا امرأة تزوجت وفشلت لأنها كانت عاطفية، أو لأنها كانت تتصل وتسأل عنه في كل دقيقة، وانتهت هذه التجربة، فجاءت التجربة الثانية وعاهدت نفسها أنها لن تتصل، فطلّقها، لماذا؟ لأنها مُهْمِلة! فالذي تفاديته بعقلك أصبح هو سبب المشكلة!

ومثل ذلك تجربة الولادة، فإن كثيرا من النساء يقلن: (مِن المؤكد أن هذه الولادة ستكون كالأولى) ولما نكبر نعلم أن كل ولادة لها صورتها المختلفة عن الأخرى، لهذا حين تقدم على ما تخاف منه بسبب تجربتك السابقة عنه؛ ارم وراء ظهرك كل ما مضى، و قف بَين يَدَي الوكيل، و وكّله أن يُصلح لك أمرك، وأن يسددك ويوفقك ويشرح صدرك ويفتح عليك ويُنَوِّر قلبك لأن تصل إلى ما تريد، لأنك حين تمشي بين الناس تحتاج إلى نور.

فمثلا في موقف ما ترى أن هذا ظالم وذاك مظلوم، وفي النهاية يكون الاثنان ظالمين، أو الاثنان مظلومين، وأنت لا تعرف، فلا يوجد طريق إلا أن تستهدي الله، يقول تعالى: {أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ} أحييناه بنفسه، والناس حوله ماذا سيفعل بهم؟ {وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ} فأنت في أَمَسّ الحاجة حين تتعامل مع الناس إلى أن يكون معك نور.

وهذا الشيء يحصل حتى مع أولادنا، فأول ولد يأتي نَشُدّ عليه ولا نقبل أن يفعل كذا وكذا، وبعد ذلك يفسد الولد لأننا شَدّدنا عليه، فنأتي للثاني ونعطيه؛ فيفسد لأننا أعطيناه، فماذا نفعل؟

نرجع لنفس المشكلة: هؤلاء بأنفسهم مَجهولين، لا نعرف كيف نتعامل معهم، فما الذي يُنَوِّر لك التَّعامل معهم؟

أن تُوَكِّلَ الله أن يُصلِحك وييسر لك وينوّر لك ويفتح عليك، لأنّ مِن أسمائه العظيمة التي تنفعك وقت التعامل مع الناس اسمه (الفتاح):

انظر إلى أولادنا كيف لا يتحملون سماع أي كلام منا، ويروننا معقدين؛ فلو جلسنا طوال الوقت نفكر بكلامهم لأصبح هذا مانعًا لنا من أشغالنا، ومن دروسنا؛ إنما نحتاج أن نعاملهم باسم الله الفتاح، ونوكله أن يفتح لنا قلوبهم، وطلب الفتح ملك لله، والقُلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء. ومِن معاني اسم الفتاح أنه –سبحانه وتعالى– يفتح قلوبهم، وأنه يزرع فيها الإيمان، فكل الذي تخاف منه وأنت مُقْدِم عليه، ولا تعرف ما هو الباب، ولا تعرف كيف تتعامل معه، اطلب مِن الوكيل الذي وكّلته.

اسم الوكيل وراءه صفات: أنه فتاّح وأنه عليم وأنه حكيم وأنه رزاق وأنه غني، مالِك لكل شيء، فإذا كان وكيلك غنيًا فتاحًا عليمًا حكيمًا، فهل تريد وكيلًا دُونه؟ (لا)، لا أحد يتخذ من دونهِ وكيلا، فقط قِف عند بابه –سبحانه وتعالى– و وَكّلهُ أمرك، فإذا وكّلته أعطاك، لكن المهم أنك في كل المسألة توكّلهُ ولا توكّل غيره، ولا حتى نفسك (وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ).

إذًا لما تُقْدِم على شيء مخيف أو شيء جديد –والجديد دائمًا له رهبة الخوف– أنت محتاج إلى هذه الأمور مِن أجل أن يحصل التفويض كما ينبغي:

١. أن تَشُل تفكيرك تمامًا، أوقفه، واجعل كُل ثُقلَك على التَّفكير في التَّفويض:

مثلًا أريد أن أنتقل مِن بيت إلى بيتٍ آخر، وأنا في ذهني خريطة طويلة عريضة بأن فلانًا انتقل من بيته ثم مات، وفلانًا انتقل من بيته وحصل له كذا، فَتَصور وأنت ذاهب تنقل بيتك وفي ذِهنك هذه الخريطة الذِّهنية كلها وتشعر أنه على قدر ما يمكن أن تفرح به على قدر ما أنت خائف منه، وهذه مشاعر موجودة حقيقةً، وأحيانًا كثيرة الذي يَبني البيت لا يتمتع به؛ بل ربما يتمتع به أولاده الذين لا يحملون هذه المشاعر، لكن هو بالنسبة له أصبح هَمًّا كبيرًا.

هل مِن المعقول أن يقع كل من يبني بيتًا تحت هذا العذاب النفسي؟! إذًا ماذا تفعل؟

شل تفكيرك و وكِّله: أنت يا رب الذي تنزل البركات على البيوت وعلى الأبناء و الأزواج، وأنت يا رب الذي تفتح القلوب ومغاليق الأبواب، أنت الذي تفتح أسباب الرزق، تُيسّر الأمر، ففي لَحظة إقدامك على الأمر تحتاج أن تتوقف تمامًا عن التفكير، لأنه في لحظة الإقدام على أمر جديد يَضعك الشيطان في مَخرطة، و قد لا تستطيع أن تَقف حتى على قدميك مِن كثرة ما يأكل فيك الشيطان مِن الداخل، فشل تفكيرك تماما ولا تفعل إلا فِعْل التفويض.

أحيانًا تكون المرأة مع زوج لا تعرف ما هي نفسيته، وقد يكون في قلبها خوف منه، وتريد من قلب زوجها ميل وعاطفة، أو أحيانًا ليس شرطًا أن يكون زوجًا جديدًا، ربما ظروف أحاطت بالحياة، فالزوج نفسهُ حصل له نوع تغيير، فماذا تفعلين؟ وكِّلي الله في إصلاح قلبه، وكِّلي الله أن يعود به إليك عودًا حميدا، ومِثله الأولاد لما تراهم قد تشتتوا، وكِّل الله أن يرُدّهم إليك ردًا جميلا، فهو مَالِك قلوبهم.

إذا علِمْت أنّ الله مالِك كل شيء، وهو الحكيم، وهو الكريم، وهو الغني، وإذا أعطاك ما تريد لم ينقص ذلك من ملكه شيئًا؛ فما الذي يجعلك تطلب الفقراء؟!

يعني لو جِئتِ لهذا الزوج الذي تغيّر عليكِ، وطرقتِ بابهُ، وقلتِ: (تعال نتفاهم)، وهذا التفاهم الذي في العادة نتصور أنه حَل، قد نجد أنه وضع حَاجزًا جَديدًا وكبيرًا بيننا وبينه، لأنني في النقاش سأقول كلمة وهو سيقول كلمة، ثم نَخسر بعضنا مِن جديد، ونعيد النقطة مرة أخرى مِن بدايتها، وهذا لا يعني أن لا نتفاهم؛ بل يعني أن نفهم الفاصل، وهو أنه لا بد من التفويض قبل أن نتقدم لأي خطوة .

٢. ثم اطلب مِن وَكيلك أن يُلهمك ويُرشِدَك الخطوة المناسبة، وسترى كيف يُهيّئ الله أسبابًا لا تكون في حسابك، لإصلاح الحال.

هناك قصة لامرأة كانت في غُرفتها تتناقش مع زوجها على الطلاق، ثم يطرق خالها الباب ليقول لهم: (أنتم قبل شهور طلبتم مني مبلغا من المال لإصلاح بيتكم، وهاهي)!

فلمَّا وجدوا المال —وكانوا قد اتفقوا أن يذهب كل منهما لحاله – غَيَّروا رأيهم!

شعروا أن إرسال هذا الرجل فيه رسالة تقول لهم أن بيتكم سيصلح، ومشاكلكم ستحل، وهاهو الرزق أتى إلى بابكم لأجل أن لا يخرب هذا البيت – وأنتم تعلمون أن غالب المشاكل دائرة حول هذه الأمور– .

وهكذا لما تُوَكِّل الوكيل؛ سيأتي لك بأسباب لا تعلم مِن أينَ أتت، وهذا الكلام شرحناه في اسم اللطيف: أن أرزاقه تأتي بألطف ما يكون مِن صورة.

مراجعة : مَرّت معنا إلى الآن حالتان:

- الحالة الأولى التي تكون وَهَما، مِن نزغ الشيطان، أصلًا ما يكون هناك أمر حقيقي ولا مَخوف حقيقي، وهذا في الغالب يُصاب النَّاس فيه بأمراض نفسية مثل الوسواس والقلق.
- الحالة الثانية أن تُقْدِم على أمر هو حقيقةً بالنسبة لك مَخوف، ولتنتبه هنا إلى أن ما يخيفك يختلف عما يخيف غيرك، وقد يستغرب الآخرون خوفك من أمر ما هو بالنسبة لهم سهل يسير؛ فلا تلتفت لهذا؛ لأن هذه الأمور نسبية، فالله –عز وجل– ابتلاك أنت دَون غَيرك بالإقدام على هذا الأمر؛ لأنّ رِفعَتَك من هذا الباب، يعني أنت ترى هذا الأمر مخيفًا أو صعبًا؛ فتبتلى به، وغيرك يراه يسيرًا وسهلًا ولا يبتلى به ، لماذا؟! منزلة في الجنة لن تَبلغها إلا حين تمر على هذا الصَّعب؛ فتتعلق بالله، لأنه لو لم يكن صعبًا لم يحصل عِندك التَّعلق، ألست في الدنيا تُختبر ومنزلتك في الجنة على قدر نجاحك في الاختبار؟ يجب أن تفهم هذه المعلومة جيدًا، حين تكون في الثانوية العامة هل ستُختبر في منهج الثالث المتوسط؟ لا، لن تُختبر في منهج بسيط عليك، بَل تُختَبر فيما يَصعُب عليك، وهكذا الاختبار يأتيك مِن الله في الأمر الذي يصْعُب عليك.

ما هوَ النجاح في الاختبار؟ النَّجاح في الاختبار أن تتوكل بكل ما تَملِك مِن قوة عليه تعالى، لكن هذا الأمر لوحده لا يكفي، لابد أيضًا مِن الذي يقابله وهو أن تترك التوكل على أي أحد غيره، لابد من التوحيد، ومن أجل ذلك تقول (أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ) كل شيء صغيرهُ وكبيرهُ (وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ) فأنت تفهم أن شؤونك هذه لا يصلحها إلا الله، والله –عز جل– حين يصلح لك شؤونك مِن دون طلب يَختبرك بالشكر، وحين يترك لك بَعض شؤونك فيها ثغرة فلأجل أن تكون هذه الثغرة سببًا لِتَعليتك وتَرقيك عنده.

أصف لكم هذا الأمر باسمين من أسمائه –سبحانه وتعالى–: (المنان) و (الوكيل): اعتبر حياتك مثل هذا البناء: بَمَنّهِ كمَّل لك كل جدرانك، فأنت سَويّ في صحتك، سَويّ في أعضائك، سَويّ في حياتك الاجتماعية، لك والدِيْن ولك أسرة، هذا كله مِن المنّ، لكن لابد أن تبقى ثغرة في البناء، الثغرة هذه التي في البناء عامِل الله فيها باسمه الوكيل؛ فَوَكِّلهُ أن يَسدّها لك، ولنقل مثلًا أن هذه الثغرة بطول المِنى، يعني بطول الحياة، في كل مَرَّة تضع فيها لَبِنَة، ثم تترقى تريدها أن تكتمل، فيبقى تَوكلك عليه وطلبك منه إلى أن تُسَد كل ثغراتك، ولو سددتها وأنت متوكل عليه نَجحت، ولو جئت في ثغرات وتعلقت بنفسك أو بغيرك، ستكون في هذه الثغرة رَسَبت، فتبقى هذه خَانة فيها مُشكلة، ويُعاد عليك الاختبار مرة أخرى إلى أن تسدّها بقوة التَّوكل عليه، فَيسدّها الله عنك، ويأتي الذي بعدها، والذي بعدها، إلى أن تنجح بأن تَسد كل ثغراتك قبل أن تموت متوكلا عليه، أو تترك مِن ثغراتك أشياء لم تتوكل فيها على الله – عز وجل–، وبِذلك يأتي النَّاس درجات في منزلتهم في الجنة على قَدر قَوة تعلقهم وتوكلهم على رَبهم.

مِن أجل ذلك انظر إلى السَّبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب، ((هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)) [1] ، فأصبح التَّوكل هو سَد لهذه الثغرات، فلو استطعت أن تَسُد كل ثغراتك ولا يصبح في قلبك أي التِفات لغيره، تكون وصلت إلى هذا الحَد الأعلى الذي فيه دخول الجنة بغير حساب، ولو أقل فأقل، لكن لا تنس أن غالب مَبنَاك بُنِيَ بمَنّهِ وكرمه، فهو الذي مَنَّ عليك، وهو الذي يعطي النَّوال قبل السؤال، كل هذا مَنٌّ مِن الله، ثم يُريك هذا الجزء النَّاقص مِن أجل أن تأتي منك التوسلات والتعلقات، وفي هذا الجزء الناقص يَدخل ويخرج الشيطان، أما باقي البناء فاختبارك فيه صعب وهو (الشكر).

هذه المشكلة الأخرى وهي الشُّكر الذي قد يصل إلى درجة أن يكون مغفولًا عنه، فمَن مِنّا الآن يقول الحمد لله أن لي نسبًا معروفًا؟ مَن منا يقول الحمد لله أن لي بيتا وأماً؟ نحن ننتقد البيت بكل تفاصيله، إلى آخر ما نَجد في نفوسنا مِن كُفرانٍ لِنعمِة الله خفي، لانشعر به، كَم مِن النساء ينظرن إلى أنفسهن في المرآة فيحتقرن أنفسهنّ ويقلن: يا ليتني مثل فلانة في عيني، أو في أنفي، أو في وجهي، أو في بشرتي، أو في بدني، كل هذا موجود، فمِن أجل هذا لابد أن تُفَكّر في أنّ الله يُعامِلك في حياتك كلها بأسمائه وصفاتهِ، فانظر إلى نفسك الآن تحت ظل أي اسم تعيش: فهو المنان، المعطي، الغني، الحميد.

أمَّا مقاييس الثغرات فتختلف مِن شخص إلى آخر، أمر يكون بالنسبة لك صعبًا ويكون بالنسبة لغيرك سهلا، مثال ذلك:

[1] رواه مسلم في صحيحه.

شخص ابتلي بشرب الخمر مثلًا، هذا بلاء، وأنت صحيح سليم، فتأتيك مشاعر تقول: (ما الذي دفعك إلى هذا؟ لماذا تفعل في نفسك هكذا؟) أنت تشعر أن قرار ترك الخمر سَهل، لكن غيرك بالنسبة له هذا قرار صعب، وفي هذا الموقف تَفهم الحديث ((يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً)) [1] . كيف تفهمه؟

بأنّ هناك مِن الناس –نسأل الله أن يسلّمنا– مَن يشرب ويسكر وبعد ذلك أول ما يصحو يبكي ويرى أنه قد فعل جريمة ويشعر بالاكتئاب، وبعد ذلك يعتمر ويفعل ويفعل، ثم يعود مرة أخرى للذنب، ففي مثل هذه الحالات اسألوا الله السلامة، لا يمر في خاطركم أبدًا أي سؤال آخر غير سؤال الله السلامة، لمـاذا؟ لأن هذه حالات ابتلاء، أنت ترى أنه لما وصل إلى هذه الحال من البكاء والندم إذًا انتهى الموضوع، ولن يعود مرة أخرى لنفس التجربة، لكن هناك أناس ابتلوا بثغرات، وبتسلط الشيطان، وبدفعه لهم وبتغييب عقولهم في لحظة، وبأشياء لا نعرف وصفها، المهم في النهاية يقع في الذنب مرة أخرى، فأنت السليم من هذا البلاء ترى أن الأمر مجرد أن يأخذ قرارا بعدم العودة، لكن هو مُبتلى، فالشيء الذي تراه سهلًا هو عنده صعب، فهذه المقاييس دعوها.

لا تأت تفكر فتقول: (كل الناس قادرون على حفظ القرآن، وأنا منذ زمن أفعل وأفعل ولا أستطيع) لا بأس، فأنت جهادك ليس في أن تحفظ؛ بل جهادك في أن تبقى تريد أن تحفظ وتجرّب وتعيد، وتنسى وتعيد مرة أخرى، وتبقى على الطريق، هذا هو المطلوب منك، ومن هنا يأتي أجرك، وذاك الشخص الذي يسر الله له أن يحفظ القرآن يأتي أجره من حفظه ونشره وتعليمه، وهكذا تجد شخصًا يأتي أجره من قيام الليل، و آخر أجره مِن قوة الندم والانكسار على ذنبهِ، فلا تفكر كيف فتح الله لكل شخص بابا، لأن هذا أمر فوق أن يُطاق في التفكير، ثم حين ترى مثل هذا تصبح مالكًا للسانك لا تتجرأ أن تقول: (ربنا سيُدخِل هذا الجنَّة، وهذا لن يُدخله الجنَّة، وهذا كيف سيُدْخله الله الجنَّة) ليس لك علاقة، ففي داخل القلوب مِن البلاءات والاختبارات والنجاحات التي قد لا تراها، فلمّا تَمُرّ على شخص مذنبا كان أو طائعا لابد أن تتخلى عن الحُكم عليه، نوع من أنواع العبادة أن تتخلى أن تحكم على أحد ، قد تقول هنا : ماذا عن شخص مات على طاعة، أو مات على معصية؟

أما الذي مات على طاعة فنحن نرجو الله، نقول أن هذا صاحب دين وأخلاق والله –عز وجل– أرانا فيه حسن الخاتمة ، لكن المشكلة أنه حين تذكر حسن خاتمة شخص، ويكرر ذلك تبرد القلوب عن الدعاء له بالمغفرة؛ لذلك من الأفضل أن لا يقال هذا إلا للأقرباء لتطمينهم .

[1] رواه الترمذي في سننه وصححه الألباني.

وهذا الامتناع عن الحكم لا يقال في حق الكافر؛ لأنه معلوم لنا أن الله قد أوعد من مات على كفره بالنار .

س: هل يكون القلق مفيدًا من جهة كونه يُوَلِّد قوة استعانة؟

ج: لن يكون القلق مفيدا؛ بل استمراره يطحنك، ويدخلك في سوء الظن، لهذا توكل على الله أول ما يأتيك ما يخيفك وفوض الأمر إليه، وكلما ذكرك الشيطان بالقلق ذكر نفسك أنك وكلت الله، وأن عليك أن تطمئن لفعله، فهذه هي العبادة، واترك عنك النَّاس مهما قالوا عنك (بارِد المشاعر).

س: كيف لي أن أعرف ثغراتي حتى أسدها؟

ج: أما الثغرات وبَيانَها؛ فالله –عز وجل– تَكفَّل لك بهِ، كيف؟ {أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ}[1] لابد أن يَفتِنَك، لابد أن يبتليك في مسائل،

وطبعًا ليس في كل شيء، لو كان في كل شيء لَهَلَكنا، لكن هناك أشياء مُعَيَّنة يَبتَلينا الله –عز وجل– بها، مِن أجل أن يَكشِفنا لأنفسنا، والمطلوب منك حين تكتشف نفسك أمرين :لا تتجاهل، ولا تبرر، فهاتان مشكلتان تأتيان بعد اكتشاف أمراضنا: التجاهل أو التبرير .

مثال: الكِبر هذا مرضٌ في القلب، والإنسان لا يعرفه عن نفسه بل يقول: (أنا متواضع وأحب المتواضعين) وبعد ذلك يختبرك الله في مواقف، وتظهر بالمقياس أنك متكبر، فلا تقل بعدها:(هؤلاء الناس لا ينفع معهم إلا هذا التعامل، ولابد أن أفعل معهم هكذا مِن أجل كذا) هذا اسمه تَبرير.

ولو نتكلم مثلًا عن الخدم: الخدم هؤلاء قد يشكلون الطريق السريع إلى النَّار لكثير من الناس، مِن جهة مشاعر التَّكبُر والاحتقار، بالإضافة إلى الظلم وغيره، بل هناك قاعدة عند النساء سواءً في المملكة أو في الخليج للتعامل مع الخدم، تقول أنهم لا يمشون إلا إذا عاملتهم هكذا، مع أنَّك لو قَرأت في السَّيرة عن سنة النبي –صلى الله عليه وسلم– في مسألة تعامله مع الخدم وتعامل الصحابة معهم وتعامل التَّابعين سترى أن طريقة التعامل الصحيحة تخالف ما يقولون، وحين تنبه على ذلك يقال لك: (هؤلاء الصحابة والتابعين، وذاك النبي –صلى الله عليه

[1] العنكبوت٢

وسلم-) ويقال لَك بأن هذا الكلام لا يأتي بنتيجة، فنقول له : بما أن الله ابتلاك بهذا الشخص فاختر أحد فعلين: إما أن ترى أنك تستطيع أن تَتعامل معه، فأكمِل معه واصبر على عُيوبه لأنه لن يأتيك أحد يسير على الخط المستقيم، أو اعتقه، اتركه، رُدّهُ، حتى لو خسرت مالك، فخسارة مالك أفضل لك من النَّار.

س: هل فعل التَّوكل والتَّفويض صعب بطبيعته، أم صعوبته ناتجة عن ثغرات عندنا؟

ج: هذان العامِلان مُجتَمِعان معًا، نبدأ بالعامل المشترَك بيننا كُلنا، ولاحظوا أنّ السَّبعين ألفًا صِفتهُم الأساسية في كل الصَّفات هي قوة التَّوكل، متى سيكون هذا الوصف لهم؟ لما يَكمُل إيمانهم، فالتَّوكل هذا يكون بِنفسهِ سببًا لزيادة الإيمان، وقوة التَّوكل مَبنية على قوة الإيمان.

يجب أن نفهم أولًا أن التوكل عبادة وسنأخذ أجرها، يعني كل ما مَرّ على خاطرك ما يُهِمَّك قلت: (وَكّلت الله عليه)، بذلك تكون مأجورًا وأنت في مكانك لم تُحرِّك ساكنًا، وكلما زاد الضَّغط عليك ازددت أنت توكلًا عليه وارتفع أجرك، ولما يرتفع أجرك يزيد إيمانك.

والتوكل بنفسه يحتاج عامل مَعه وهو زيادة الإيمان، يعني لَن تستطيع أن تستمر صابرًا متوكلًا معتمدًا على الله مُحسن الظَّن بهِ إلا إذا غَذَّيت نفسك بأسباب زيادة الإيمان، فأحيانا أولادك يتأخرون نصف ساعة فيأتيك الشيطان بأنه حصل لهم كذا...إلخ،

فحتى تَطمئِن أين هُم تحتاج إلى أن تتصل بفُلان وغيره، لكنك في كل لحظة تقول: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ربي حافظهم، أنا استودعتهم الحفيظ) إلى أن تصل في لحظة فتَنفجر فيها، فتقوم إلى الجوال وتتصل، وفي هذه اللحظة وأنت تتصل يدقون الجرس! رَسَبت! نجحت في البداية ثم أتيت في آخر لحظة فرَسبت! فتشعر أنك تستحي من نفسك وأنك لو صبرت هذه الدقيقة لكنت نجحت في الاختبار.

قد تقول لي: الآن ألا يجب أن نأخذ بالأسباب؟ نقول: الآن حَالُك وَصل إلى حَد الوِسواس، ولما تعرف كيف تترجم الموقف على أنه اختبار ستصبر وستتهيّأ لك كُل الأسباب، والذي يزيدك صبرًا التوسل إلى الله ليصبرك، وهذا لا يعني ترك الأسباب، لكنك تعرف جيدًا أن هذا الاتصال الهاتفي أصلًا ليس أخذًا بالأسباب، فأنت الآن ماذا تريد؟ لو ترجمت الموقف بسهولة سترى أن البلد مليئة بالازدحام، فلماذا تنتقل إلى هذا التفكير مباشرة ؟! ثم إذا أصابهم أي شيء توسل إلى الحافظ أن يحفظهم. في زمننا الأول بدون اتصالات وجوالات ماذا كنا نفعل؟ نحن الآن نعيش على الجوالات ونشعر أنّنا نريد معرفة كل شيء الآن!

افترض أن السائق الذي معهم ليس معه جوال، ماذا ستفعل؟ هل ستموت؟! أنت الذي تطحن نفسك، والشيطان يدفعك.

متى تحتاج الصبر؟ ليس في أول البلاء، لأنك في أوله معك صبر، لكن تحتاج الصبر لَمَّا تنْفُذ طاقتك التفكيرية الهادئة، لما يتأخر الوقت عن موعد رجوعهم، هنا بدأت تحتاج الصبر، وهنا يبدأ الشيطان بالضغط عليك، ويبدأ بفتح باب الخيالات السيئة لك؛ فتُفكر متى سيأتي الناس يُعزّونني، وماذا سأفعل! نحن نَرى ونَسمع هذا الكلام عيانًا، حقيقةً، حتى المرأة التي في قلبها قلق على الزوج يكون في ذِهنِها تُخطيط ماذا ستفعل لو مات، المهم أنك مِن هُنا بدأت تحتاج الصبر، والصبر هُنا هو عملية مدافعة سوء الظن بالله، والطَّلب من الله، فما دمت خائفًا الآن فاطلب مِن الله حفظه، واطلب رعايته، واطلب منه أن يوصلهم سالمين.

أحيانًا مِن رحمة الله بِعبدِه وهو ما نُسمّيه نحن أحيانًا بـ"إحساس الأم" أنّ أولادك يكونون خارج المنزل سواءً في المدرسة أو غيرِها، فَيُلهِمك الله أن تَدعي لهم، فَيأتي الشَّيطان ويقول لك: لماذا تدعين لهم؟ لَمَّا يقول لك كذا اعلمي أن الإلهام الذي أتَاك بالدعاء لهم هو رزق من الله، لكي يَجعل دُعاءك سَببًا في حِفظهم، فهذا الموقف يَحتاج مِنك إصرارًا على الدعاء لهم، ومن المؤكد أن في ذاكرتكم ما يشهد لهذه المواقف، وكيف أنك دعوت لهم، وأتى بهم الله لك محفوظين.

حتى أن أماً تقول: كنت أصلي صلاة الظهر فأُلقي في قلبي أن أدعي لابنتي بالحفظ بالرغم من أنها لم تتأخر، ودعوت لها، وبعد أن انتهيت من الصلاة دَخَلَتْ ابنتي، فرأيت وجهها مُصفَرا، فسألتها: ما بك؟ قالت: ذهبتُ أوصل ابنة خالي لبيتها ونزلت؛ فأغلق المصعد بين الدورين، فبقيت أقفز أَقفِز إلى أن نزل إلى الدور الثاني!

انظر كيف ألهم الله الأم الدعاء، لتزداد قوة في التوكل عليه حين تتذكر في المرات القادمة أنّ ربها حين أراد حفظ ابنتها أَلهمها الدعاء لها؛ فمن دَعا وتوكل على الله لم يخذله الله؛ وإلا فطفلة في الابتدائي كيف يأتي في بَالها أن تَقفز لتُنزل المصعد إلى أسفل؛ فتستطيع فتح الباب ثم الخروج منه؟! سبحان من يحفظ بفكرة!

السؤال يقول: في المواقف أجد نفسي غير قادر على التوكل، بل ينفذ صبري بسرعة.

نقول: أولًا يجب أن تعلم متى تحتاج الصبر، تحتاج الصبر لما تخرج عن حالتك الطبيعية، وأنت في الحالة الطبيعة ذاك لا يسمى صبرا، لكن لما تبدأ مشاعر الخوف في قلبك لأن الوقت تأخر، فمِن هنا تصبر وتبقى واعيًا أن الله مع الصابرين، يعني استوعب الآن أن الله مَعك فَاطلُب منه السَّداد واطلُب مِنه التَّوفيق والثَّبات في هذه اللَّحظات، لحظة نَفاذ صبرك ترجمها على أنها اختبار. وهذه القدرة على الصبر وهذا التوكل يأتي به زيادة الإيمان، فأنت تحتاج لزيادة إيمان مِن أجل أن يأتي منك التوكل، وزيادة الإيمان لها أسباب كثيرة، وأهمها على الإطلاق:

– (العلم بالله)، إدمان تكرار العلم بالله.

مثلا: أولادك الآن ليسوا عندك، إذًا سَتُعامِل الله بأي اسم؟ باسم الحفيظ ليحفظهم، وهو الذي يحفظهم على الحقيقة، لأنهم أحيانا يكونون أمامك فيسقطون وتنكسر أرجلهم، ثم في المدرسة يسقطون مِن فوق إلى أسفل ولا يصيبهم شيء! إذًا مَن الذي حَفِظَ هنا ومَن الذي ابتلى هناك؟ ما ابتلاهم إلا الله وما حفظهم إلا الله، لكن بسبب نقص الإيمان يَدخُل إلى قُلوبِنا ضعف التَّوكل.

فَنَقْصُ الإيمان يَأتي بِضِعف التَّوكل، وزِيادة الإيمان له أسبابهُ وهو العلم عن الله، فقط تَعَلّم عن الله، بحيث تزيد ثقتك به، واستعمل الذي تتعلّمه في المواقف، فمِن رحمة الله بك أن يجعلك تَدخل في لقاءات تتكلم عن أسماء الله، وتسمع الكلام ثم تخرج وأنت تشعر أنك لم تتغير في شيء؛ ثم ما تلبث أن تأتي مواقف الشدة؛ فتقرأ ماتعلمته قراءة،وتستعيد ما يجب عليك فهمه استعادة تعجز عنها فيما لو كنت حافظًا، وهذا من رحمتِهِ أن كَلَّفَك بالسَّماع وهو تَكَفَّل بِحفظ ما سَمعتَهُ، وتَكفل أن يَنفعك بِه بالوَقت المناسِب، لذلك كل ما عليك الآن هو أن تفتح قلبك فقط وتسمح للعلم أن ينساب ويتغلغل به؛ فإن هذا العلم الشريف لا يقع في الآذان، ولا في الأوراق؛ بل يقع في القلوب، وحق له أن تُهَيَّأ له القلوب؛ وإلا فلأي شيء ستهيأ؟!.

– **ومِن أعظم أسباب زيادة الإيمان كَثرة الذِّكر**: كن دائمًا لِرَبك ذاكرا، فكثرة الذِّكر سبَب من أَسباب زِيادة انتفاعك بالعلم عن الله، ومن ثم قوة اللجوء إليه والثقة به والتوكل عليه، لأن الثقة هذه كأنها حبات رمل توضع فوق بعضها قليلا قليلا – وليس مرة واحدة –ثم تسقى بالماء فتتماسك وتصبح قوية.

أنت الآن كأنك تَلُمّ شَعثَ نَفسِك، وتَلُمّ في قلبك الثِّقة بالله، وهذا لا يبنى مَرة واحدة، خصوصًا إذا نظرت إلى ما سلف مِن عمرك، ومِن جهلك عن الله، ومن معايشتك الحياة بتجاربك، والناس حولك يزهّدونك في الثقة به، ويقولون لك: (تَحَرّك، افعل شيئا، لو كنت مكانك لم أجلس على الأرض)! والناس في بَث القَلق مَدارِس!

– **أيضًا من أسباب زيادة الإيمان:كثرة الطَّاعة؛** فلا تبخل على نفسك بصلاة ضحى، لا تبخل على نفسك بأن تسبّح وتُكبّر وتُهلّل، لا تَبخل عَلى نفسك بِسُنَن الصَّلاة، لا تبخل على نفسك بالوتر، لا تبخل على نفسك بالطاعات التي هي سبب لزيادة إيمانك، وكلما ازددت إيمانًا كلما نَظف قَلبك، ولا تَبخل على نَفسك أن تأتي بالعَامِل الآخر وهو تَرك المعاصي، خصوصًا ما تستهين به من المعاصي، كمُصيبة الغيبَة العَظيمة، ومُصيبةالكذِب، والاستهزاء والسخرية بالنَّاس، إلى آخر هذه المصائب المهلكة لِبناء الإيمان في القلب، فكل هذه العوامل المسببة لزيادة الإيمان تَجعَل ما تَسمَعه عن التَّوكل، وما تسمعه عن صِفات الرَّب يَثقُب قَلبَك، لأن القَلب يُصبح كالمغَلَّف بِسبَبِ ضِعف الإيمان.

متى يصبح التوكل سجية عندك؟

بعدما يزيد إيمانك، وبعد أن تجاهد نفسك!

زيادة الإيمان تحتاج إلى بذل جهد،(وقِس هذا على مسألة الصَّلاة، وما تحتاجه من جهاد؛ لأن الصلاة هي التَّعبير الأعلى عن عَمل القلب الأعلى)، ولتعلم أنك ستجد نفسك في كل ثغرة كأنك تفعل هذا الفعل لأول مرة، ولنضرب مثالًا على ذلك:

امرأة زوجها سهل في التعامل، ومشكلتها دائما مع أولادها، فتستعين بالله على تربيتهم، وتدعو الله أن يهديهم، ويشرح صدورهم، وتشعر أنها حققت التوكل فيهم، وتنتهي من هذه الثغرة، ثم لا تلبث أن تفتح عليها ثغرة من ناحية زوجها الذي كانت مطمئنة على طريقة تعاملها معه، فتجد نفسها وكأنها لأول مرة تستعين وتتوكل وتثق، لأنه شيء جديد وصورة جديدة.

مثال آخر: هناك شخصيات تَستَفزَّك لدرجة التفكير بقطع علاقتك بهم، وحين تريد نصحهم تشعر أول الأمر أنك غير قادر أن تنصح بصدق، بعد أن كنت طوال عمرك تنصح وأنت صادق، لكن هذا الشخص مِن كثرة ما تسبب في غيظك أصبحت نيتك مختلطة: هل أنت فعلًا تريده أن يَصْلُح، أم تريد أن تُخْرِج الذي في نفسك عن طريق هذه النصيحة؟ فتقول: (أشعر وكأني لأول مرة أجمع قلبي على النَّصيحة). نقول: نعم، لأن الذي عُرِضَ عليك فِتنَة جديدة، فكأنك مِن جديد تَأتي تَجمع قلبك وتَنتَفع بما تعلّمته، ثم تضعف وتقوى على حسب قوة وضعف إيمانك.

نحن للأسف عندنا قاعدة "أتْعِب بَدَنك ولا تُتعِب قلبك" دائمًا نريد القلب مرتاحًا ساكنًا، مع أن البلاء على قلبك: ((إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ)) والشيطان يُثَبِّت فينا أن قلوبنا هذه لابد أن ترتاح، لا، الراحة ليست هنا، اعلم أن الراحة لا تأتي إلا حين يُبَشَّر العبد بالجنَّة.

[1] متفق عليه، رواه البخاري، كتاب الإيمان / باب فضل من استبرأ لدينه / حديث رقم ٥٢، و مسلم في المساقاة باب أخذ الحلال وترك الشبهات رقم ١٥٩٩.

س: هذه الدقائق التي أشعر بها بمشاعر الاضطراب، هل هي صبر سأؤجر عليه، أم قلق سأؤثم عليه؟

ج: هذه فِتنة عُرِضَت عَليك، فالشَّيطان يُصوِّر لك المسائِل بِصورة أنه سيحصل وسيحصل، لذلك عليك أن تدفع التَّفكير، وأنَ تتصَبَّر عن إساءة الظَّن بالله، وقل: ما يأتي مِن رَب الخير إلا الخير. صف الله بالكَمال، وهذا هو الصَّبر الذي تُؤجر عليه، أما استسلامك وفَتح باب الخيال، ثم الاضطرابات التي تحصل ولحظات الخوف، هذا الذي يُخشى أن يكون قلقًا وسوء ظن بالله.

س: ماذا نَفعل في النَّاس المصاحبين لَنا في الحياة الذين يُترجِمون كل زيادة إيمان على أنها بُرود وإهمَال؟

ج: هذه مِن البلايا التي تُعرَض عليك، وكما ذَكَرنا في قَواعِد بناء النفس: (احذر عدوك) ومِن أعدائك الصُّحبة، فلمَّا تَجد نَفسك مستعيذًا مستغيثًا متوكلًا على الله، لابد أن يأتي أحد فيُصوِّر لك هذه الصُّورة على أنها شيء سيّء، فاعلم أنّ هؤلاء ابتلاء، كما أن نَفس الموضوع ابتلاء، فَدافِعْهُم وقل: حسبي الله و نعمَ الوكيل، أما هُم فكلِّمهم عن الله، فهؤلاء ما هُم إلا كما قال الله عنهم {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}[1] .

الشيطان له أولياء مِن البشر منتشرون، فَيُخَوّفك الشيطان بأوليائِهِ، يعني الذي لا يستطيع أن يُسَمِّعك إياه يَؤزّ أولياءه ليسمعوك إياه، فكُن نافعًا لنفسك ولهم، لا تكتم في نفسك مشاعر التَّوكل، بل أعلِنْها وتكلّم بها، قل: أنا على الله متوكل، وما يأتي من الله إلا الخير، فهو خير حافظًا وهو أرحم الراحمين، ومهما كان الأبناء تحت يدي فلابد أن عيني تَغفل عنهم بالثواني فيحصل لهم ما يحصل، ولا تعتبر أن الاتصال الهاتفي عبارة عن أخذ بالأسباب؛ فلو حصل لهم شيء، ماذا سيفعل اتصالك هذا؟! هل تريد أسباب حِفظَهم أم أسباب الطمأنينة؟ اعلم أن أسباب الطمأنينة مِن عند الله، وأسباب حفظهم مِن عند الله !

[1] آل عمران١٧٥

س: مِن أجل أن يزيد توكلك وطمأنينتك زِدْ إيمانًا، لكن قد يأتي الشيطان فيقول لك: أنت الآن لا تزيد إيمانك إلا مِن أجل أن يزيد توكلك، وما تريد أن يزيد توكلك إلا مِن أجل أن يأتيك الذي تريده!

ج: نقول في الرَّد على ذلك أن الله –عز وجل– أنشأ لي الحاجات مِن أجل أن يحصل مني الانكسار والذُّل، فالعباد نُفوسهم فيها ضعف، فمِن أجل أن يَردّهم الله إلى بابهِ يُنقِص عليهم شيئًا مِن حاجاتهم، أهم شيء أن تعبُد الله وأنت راضٍ عن فِعلهِ أعطاك أو لم يعطك، ومِن أجل ذلك يأتيك الاختبار: هل تستقيم على أمرهِ إن أعطاك وإن لم يُعطك؟ أم لا تستقيم إلا إن أعطاك؟ اسأل الله أن يثبتك في الحالين، والشيطان له حيل حتى على الصِّغار، وإليك بعض الأمثلة على حيله:

–جاءتني امرأة كبيرة تقول: وأنا طالبة في المرحلة الابتدائية كُنت أفعل المعاصي ثم وَقعت لي مصيبة، فقررت أن أصلي، ثم قلت لنفسي: الآن حين احتجت ستصلين؟!، فتركت ما عزمت عليه من الصلاة، ولما درست في كتاب التوحيد أنّ الكفار المعاصرين أشد كفرًا مِن كفار قريش، لأن كفار قريش كانوا يوحّدون الله في الشدّة، لكن الكفار المعاصرين لا يوحدون الله في الشدة و لا في الرخاء، تَنبَّهت أن الشَّيطان يَلعب بي ويقول لي: (استحي مِن الله كيف لا تطلبينه في الرخاء وتطلبينه الآن في الشدَّة)؟!

إن أخبرك الشيطان يومًا بهذا؛ فليكن جوابك لنفسك جاهزا : الله يوقع علينا الشّدة من أجل أن نعود إليه، ونذوق طعم الصلة به، ثم لما يُعطينا حاجتنا تزداد ثقتنا به.

–قد يأتيك الشيطان يخبرك أنك لن تستقيم الآن إلا لأنك اقتربت من الموت، فقل لنفسك: الحمد لله أن جعلني أستقيم في آخر حياتي ولا أموت قبل ذلك، وقل لها: ((إِذَا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِعَبْدٍ خَيْرًا عَسَلَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ)) قِيلَ: وَمَا عَسَلُهُ قَبْلَ مَوْتِهِ؟ قَالَ: ((يُفْتَحُ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ بَيْنَ يَدَيْ مَوْتِهِ حَتَّى يَرْضَى عَنْهُ)) يعني وفّقه في آخر عُمرهِ إلى العمل الصالح، و"عسَّله" هذه يمكن أن تأتي في آخر عشر سنين من الحياة، وليس شرطًا أن تكون في آخر يوم منها، وأنت على كل حال ستموت ستموت، ومِن التَّوفيق أن يستقيم العبد كُلما كَبر في السّن، لأنكم ترون بأعينكم أناسًا يكبرون في السن وينتكسون، وهذا إنما مِن الخُذلان، فمِن الرَّحمة والعطاء أن يجعلك الله –عز وجل– تتقدم في العمر وتتقدم في الطاعة، ومِن الطبيعي أن الإنسان لما يكبر يزداد طاعةً {رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ} [٢] .

[١] صحيح ابن حبان وصححه الألباني.

[٢] النمل١٩

-شخص يهُمّه أمر ما، كصلاح أبنائه، أو له بيت أو معهد أو عمل يريد أن يقوم به، ويشعر أن الأعداء محيطون به، يعني حَوله مِن النَّقائص الشيء الكثير، وهو كلما تذكّر فَوَّض أمره إلى الله أن يَرد عنه وأن يأتي له بالمصالح؛ فيأتيه الشيطان ويقول له: (كفى، لا تتعب نفسك، لا تفكر في الموضوع) ونحن قُلنا أن الشيء الذي يخيفنا دائمًا يُذكّرنا الشيطان بهِ، فلمَّا وَجَد الشيطان أن تذكيره له به سيأتي بعبادة التَّفويض؛ أصبح يَلعب معه الدَّور الثاني؛ فيقول له: (لا تتعب نفسك، لا تفكر في الموضوع) ! كلا، لا تطعه؛ فهذه عبادة!

-تكون جالسا؛ فيأتي الشيطان يُذكّرك بنقائص أنقصها الله عليك: كموت أحد أبنائك على سبيل المثال، يُريد بذلك أن يَقع في قلبك عَدم الرِّضا عن الله، فماذا تفعل؟

عامِل تَذَكُّرك للنَّقص بأن تصبر وترضى عن الله، وتقول أنه ما أوردهُ الله عليَّ إلا رفعة لمنزلتي، ومِن فضل الله أنك لما تُعيد نفس العبادة مرة أخرى؛ يعطيك الأجر مرة أخرى؛ بل لو العبد تَذكَّر مصيبة حَصلت له منذ زمن؛ فعامَلَها بالصبر والرضا عن الله، كُتِب له الأجر كأنّ هذه المصيبة وقعت الآن وصَبَرَ عليها، فهذا مِن فضله -سبحانه وتعالى- وهذا كلهُ إغاظةً للعدو، ومِنَّة من الله أنه يساعدك على الثَّبات في الصبر،واعلم أنك إن بقيت تصبر، وتحتسب، وترضى عن الله كلما ذكرك الشيطان بالنقص، وإن بقيت تذكر نفسك أنه لا يأتي من الله إلا الخير؛ فسيهجُر الشيطان تذكيرك بهذا النقص؛ لأنه يرى أنك حولت هذا المؤلم إلى موطن من مواطن الأجر، وهو لعداوته لك يبغض لك هذا، ولهذا كلما تذكرت المصيبة لا تعاملها بالبكاء والحزن؛ بل عامِلها بالصبر والرضا عن الله، خصوصًا أنه مَرَّت عليك فترة تساعدك على الصبر والرضا عن الله، ولا تكن من الضعف مثل أولئك الذين كلما تذكّروا ما يحزنهم يبكون من جديد، ويحزنون ويأتيهم الاكتئاب، رغم مرور الوقت الطويل على مصيبتهم، وهذا من من الشيطان {لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا}.

اتفقنا أن التفويض يحصل في ثلاث مواطن:

الموطن الأول: لايكون هناك شيء، لكن الشيطان يُوهِمك وينزغك بأوهام، و يأتيك بأفكار تجعلك تخاف مِن المستقبل، أو مِن المجهول، أو مِن أحد في ماضيك، أو أحد محيط بك، فكيف تعامله؟ مباشرة افعل فعلين: افزع إلى الله مفوضًا له الأمر الذي تخافه، واستعذ بالله من الشيطان.

الموطن الثاني: لما تكون مُقدِمًا على أمر جديد بالنسبة لك، وداخلك مشاعر خوف ولابد، فأوَّل ما يَمر على خاطرك هذا الأمر الذي سَتُقدِم عليه تأتيك معه مشاعر الخوف، وتشعر كأن قلبك اعتصر، مباشرة افزع لله، و وكِّله واطلبه بأسمائه وصفاته قائلا: (أنت وكيلي فافتح لي في قلوبهم، اجعلني مقبولا عندهم، أنت الغني فأعطِني) إلى آخر هذا كله. وأيضا شُل تفكيرك، لأن تفكيرك هو الذي سيعذبك، وسترى أن الأسباب تتهيّأ مِن أجل صلاح الأمر.

الموطن الثالث: لما يقع في القلب شُبهة وشهوات وأمراض، ومثاله: شخص يرى أن الشيطان يُحبّب له المنكر، أو يأتي له بشبهات في الله -عز وجل- وفي صفاته، أوفي القرآن، أو يَمر على أحد فَيُلقِي في قلبه شبهة عن دين الله، وهذا موطن مِن أعظم مواطن التَّفويض، لأن عَدم صلاح القلب سيؤدي للهلاك.

هذه النقطة أصعب من النقطتين السابقتين؛ لأنها تُدمِّر كل شيء.

ما معنى الشُّبهات؟ يعني أمر يُشَبه عليك، ويُشكِل عليك، سواء في صفات الله، أو في أقداره، تأتي تقول مثلا: (حرام هؤلاء يحصل لهم هكذا من إخواننا في فلسطين أو العراق) ومِن هذا الكلام الذي ليس له في الحقيقة معنى، وبكل سهولة يتفكك، لكن الشيطان يُلقي هذا في قلبك. أو قد يدخل عليك الشهوات، فما معنى الشَّهوات؟

يعني شيء محرم وفي قلبك حُبّه- وقد يكون وقع حبه في قلبك بسبب أنه مَرّت عليك لحظة من اللحظات قلت في قلبك: (كيف بالله هؤلاء يحبون هذا الشيء؟)، فَتُبتَلى به- وما يُقلِع مِن قلبك مثل هذه المصائب إلا أن تُفوِّض أمرك إلى الله، وتشتكي نفسك إلى الله. واجمع بين أمرين:

١. بين الفزع إلى الله أن يُصلح لك قلبك.
٢. وبين مَقتْ النفس، يعني كراهيتها، فتكرهها في لحظة التَّفكير في هذا الأمر.

أحيانا هذه الأمور تأخذ الإنسان لدرجة أنه يقول: (يا لَيت رَبي حَلَّل هذا الأمر)! بدلًا من أن يمقت نَفسه ويرى أن هذا شيء سيء!

وهذا كثير اليوم، نَسمعه من الشَّابات حين تَثور فيهم ثَورات الشهوة والحاجة؛ فَتجدهم يتكلمون بكلام غير منطقي، لكن تَغلَّب عليهم الشيطان.

فلمَّا تَغلُب عليك الشهوة أو الشبهة توسل إليه -سبحانه وتعالى- وهو الوكيل أن يُصلح لك قلبك، وأيضًا مع العامل الثاني وهو مَقتْ النَّفس وكراهية هذه الأفكار، واعلم أن هذا شيء حقير يجب أن لا تتصف به.

والحمد لله رب العالمين.